الإسلام

خواطر وسوانح

تأليف

الكونت هنري دي كاستري

ترجمة من اللغة الفرنساوية

أحمد فتحي زغلول باشا

وكيل نظارة الحقانية

خليل صادق

صاحب مجلة مسامرات الشعب

١٣٢٩ هـ مطبعة الشعب بشارع درب الجماميز بمصر ١٩١١ م

الإسلام

خواطر وسوانح

تأليف

الكونت هنرى دى كاسترى

ترجمه من اللغة الفرنساوية

أحمد فتحى زغلول باشا

وكيل نظارة الحقانية

خليل صادق

صاحب مجلة مسامرات الشعب

مطبعة الشعب بشارع درب الجماميز بمصر ١٣٢٩ هـ ١٩١١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

أما بعد فاني عثرت على كتاب فرنساوى ألفه حضرة الكونت هنرى دى كسترى فى الدين الاسلامى ١٨٩٦ ميلادية ولما فرغت من قراءته وجدتنى منساقا الى ترجمته فلم يدركنى ملل ولا نصب حتى أتيت على آخر الكتاب وعدت فراجعت الترجمة فاذا هى تكاد أن تكون حرفا بحرف ثم توجهت الفكرة الى طبع هذه الترجمة ونشرها على الناطقين بالعربية فاعترضنى بعض الاصدقاء بعد أن أريته شذرات من الترجمة وكان من رأيه عدم النشر بالطبع واحتج بان الكتاب وان كان غاية فى التدقيق قاصدا نهاية التحقيق غير انه اضطر الى ذكر ما كان يعتقده أو يتوهمه مسيحيو العصور الخالية فى الدين الاسلامى من الشناعات والسباب. وذكر مثل هذه الاشياء وان كان على سبيل الرد عليه ربما اشمأزت له النفوس ووقع من المطلعين عليه موقع الاعتراض وعدم القبول. فهو لا يروق من هذه الجهة جماعة المسلمين وانى لم يكن ليخطر ببالى مثل هذا الخاطر ولم يدر في خلدى ان يعترض واحد على ذكر هذه الاشياء فى الكتاب وهى لم تذكر من المؤلف وهو مسيحى على انها حقائق بل اوردها على انها اوهام علقت باذهان المسيحيين من تلك الاعصر وترتب عليها ارتسام المسلمين في مخيلاتهم بالصور الشنعاء واراد المؤلف

محو هاته الصور من مخيلات الاجيال الحاضرة فبرهن واقنع واستدل بالحجة القاطعة على ان تلك موهومات لا نصيب لها من الحقيقة وذكر اسباب ايجادها في النفوس ورغب الى قومه ان يستبدلوا تلك الصورة المشوهة بصورة الاسلام الحقيقي وما يدعو اليه من خير واصلاح . فلذلك لم اعوّل على رأى ذلك الصديق في التأخر عن الطبع الا انه اوجب عندى استشارة غيرى وغيره فرأيت امام الصديق المعارض اصدقاء موافقين وغيرهم مستحسنين وغيرهم آمرين وبالطبع غلب رأى الاكثرين رأى الواحد خصوصاً وانه لم يستند الاّ على شيء قال ربما يحصل ونحن نقول ربما لا يحصل وان حصل فهو من عدد قليل وانه لو لم يذكر المؤلف ما ذكره من تلك الموهومات ونبه على فساده وبرهن على خلافه لبقي مركوزاً في اذهان قومه وبقينا ونبينا عندهم على ما توهمه السابقون منهم اما وقد فعل فلا شبهة في انه خدم ما استطاع ووجب علينا شكره ما استطعنا ومن تمام شكره اعلام قومنا بكتابه ولكنا لم نرد ان نأخذه بدون اذنه واستمحناه الاذن فيه فتفضل بالاجابة وكان له بذلك كمال الشكر والامتنان

على ان امكان اشمئزاز البعض مما جاء في هذا الكتاب من الاقوال التي ردها المؤلف ودل على خطائها بالبرهان لا يقابل الفائدة التي نراها من نشره والذى يقصد الفائدة ويتحرى مآخذها لا ينبغي له ان يلتفت الى ما عساه يكون من نفور بعض القراء فانهم لو انصفوا لما نفروا

هذا وان قومي لعلى علم تام من ان مقصد مثلى حسن وغرضى انما هو التنبيه على انه قد وجد من غيرنا من قام للدفاع عنا بذكر الحقائق وسرد

الوقائع التاريخية الصادقة فسفهرأى قومهفيناوابانلهموجهي الخطاءوالصواب ومن الواجب علينا ان نعرف ما قيل عنا وما دفع به الدافعون وليتهم كانوا منا وان نتعرف صاحبي الرأيين فنعرف المخطئ ولا ندع له بابا آخر للطعن علينا ونعرف لذى الصنيعة صنعه الجميل فنزيده اعتقاداً باستحقاقنا لما صنع . وفينا كتاب الله اعظم مرشد لهذا السبيل فقد حكى بعض المذاهب بنصها وفصها ورد عليها بغاية الايضاح والتبيين وعندنا كتب سادتنا الاولين في علوم الاصول والكلام وكلها تحكي المذاهب الباطلة مفصلة وترد عليها . ومن علمائنا السابقين من يوجب حكاية المذهب الفاسد ليتمكن المطلع من الرد عليه بالدليل فاذا كان هذا هو الحال فى المذاهب التى قرّرها اصحابها ويخشى حقيقة من انتشارها لانهـا مبرهنة بنوع من البرهان وان كان فاسد المقدمات فما الظن بما حكاه الغير عنا على غير وجهه اما غلطاً أو قصداً لغرض مخصوص . أظن انه لايختلف اثنـان فى انه من ألزم الواجبات حكاية ماحكوه واشهار ماقالوه واذا كان الغرض فى القسم الاول هو الرد عليه فليكن الغرض من هذا القسم معرفة مارمينا به وهذا بلا ريب ينتج الرسوخ فى العقيدة عندنا وينتج أيضا اقتناع الواهمين بضـد ماتوهموه وهذه النتيجة تقصد لـكبار العقلاء ويحبها أفاضل العلماء

وفوق هذا فانا بذكرنا ما قالوه قدحا علينا أو طعناً في ديننا أو صاحبه عليه الصلاة والسلام نرجع الى أنفسنا ونبحث عما اذا كان لاقوالهم من أعمالنا منتزع ام لا فان كان لهم منها منتزع علمنا كما هو الصواب انه ليس من أصل الدين فلا نلبث ان نتباعد عنه ونرجع لأصل الدين القويم ولا نحيـد عن

العمل به في أي حال من الاحوال وان لم يكن لهم من أعمالنا منتزع ادركنا ان لهم غرضاً مخصوصاً وعملنا على مايزيل هـذا الوهم من أنفسهم أو يدفع بهم الى تغيير غرضهم فينا وهم لاشك مجتنبوه اذا رأوا منا ذلك المنهج المعتدل والسير على الصراط المستقيم فان مقاومة الوهم بمثله لا تفيد

ثم انه لاينكر ان في همتنا قصوراً عن البحث فيما يعتقده الناس فينا فاذا قيض الله لنا من بحث بدا لنا ورد الشبه عنا فما اجدرنا بقبول عمله واظهار الرضا به وما أولانا بنشر تحقيقاته بيننا حتى تعمّ فائدتها جميعنا وربما جرّنا هذا الى الاشتغال بانفسنا فان ماحك جسمك مثل ظفرك ولا أحسن من ان يتولى الانسان مصالحه بيده مع حفظه حق مرشديه وعدم انكار صنيعهم الجميل

ولقد رأيت للمؤلف من التثبت في النقل والاعتدال في الحكم واستعمال الذوق في الرد واعمال العقل في النقد وطريقه والاستشهاد بالوقائع التاريخية مافاق به سواه من مؤلفي زمانه فبان لي انه غرضه الحقيقة أياً كانت ولا أواخذه في بعض مواضع كتابه مما لم يطابق نقله الاحكام الشرعية اذ ربما اعتمد فيه على قول بعض النقلة وربما كان نقله صحيحا على بعض المذاهب التي لم أقف أنا عليها ولذا لم ألاحظ عليه في الهامش ملاحظات مستقلة وفضلا عن هذا فانني رأيت ان تكون الترجمة نقلا للاصل برمته ليعلم ماذا قصد وماذا كتب ويكفينا منه انه طالب للحق وان جاء في بعض آرائه ما عساه يحمل على الخطأ مثل الذي له في التأويل والحكاية عن اخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم واعماله واعتقاداته. على انه لايفوت قراء الترجمة ان الكتاب كتب

لينشر بين قوم المؤلف وكان لا بد له من ملاحظة افكار المكتوب اليهم وأحوالهم وربما اضطر فى ذلك الى ابراز بعض الحقائق الثابتة عنده فى صورة الاحتمال والامكان كما يشير اليه كتابه الىَّ ايذانا بنشر ترجمته كذلك لم أشأْ ان أكون معه من المجادلين لئلا تضيع الحقيقة او ينجر الامر الى الانكار على صاحب مقصد حميد

هذا وانى تارك هنا ما نحن عليه من وقوف حركة النظر ومن تعطيل قوة البحث فى العلوم ومن ترك مادعينا للعمل به من قواعد الدين ومن الابتداع فيه وعدم العمل بزواجره واجتناب نواهيه ومن اغفال ما حثنا عليه من العلوم النافعة والتربية الناجعة فان ذلك وان كان له مساس بما نحن بصدده الا انه يقتضى الشرح الطويل مما لا يحتمله هذا المقام ولكنا نقول قولة مجملة بان الاسلام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يرضى منا بالغفلة عن المنافع والمصالح ويطالبنا بدفع المفسدة ويحثنا على مكارم الاخلاق ويبين لنا ان كل بدعة ضلالة وان كل ضلالة فى النار وان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وان العلم يطلب ولو في الصين وان لا شيءَ من العلم بضار ولا شيء من الجهل بمفيد وان من احدث فى الدين ما ليس منه فهو رد عليه . هذه هى تعاليم الاسلام الا ان الاعصر الحاضرة قد خرجت بالدين الى ماليس منه فعطلت شعائره الحقيقية ودخلت فيه البدع وتغلبت المعتقدات الفاسدة على القواعد الصحيحة وتمسك الناس بالبدع وتركوا الفروض والواجبات وكاد القرآن يتلى مع الآلات المطربة والصلاة تؤدى فى الحانات واندثر العلم وانحلت العزائم وقعدنا عن تحصيل القليل من

ضرورياتنا وتأخرت التربية ففسدت الاخلاق وتناكرت النفوس فاختلفت المساعي وتماكست المقاصد فتفرقت المنافع وانحل عقد نظام المسلمين فاصبحوا اشتاتاً يمقتهم الناس ويرمونهم بالانحطاط ويعيرونهم بما تنزه عنه شرعهم ولكنهم ألفوه وبالغوا في التمسك به حتى تبدلت الاحوال وصار كما قال صاحب المنار (الجبر توحيدا وانكار الاسباب ايمانا وترك الاعمال المفيدة توكلا ومعرفة الحقائق كفرا والحاداً وائذاً المخالف فى المذهب دينا والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحاً واختبال العقل وسفاهة الرأى ولاية وعرفاناً والذلة والمهانة تواضعاً والخضوع للذل والاستبسال للضيم رضى وتسليما والتقليد الاعمى لكل متقدم علما وايقانا)

نعم كان هذا كله واكثر منه مما نمسك القلم عنه وانما سقنا ما ذكرنا معذرة لمن يفهم من الاجانب ان سوء حالنا آت من جهة ديننا وان رضوخنا للجهالة احدى دعائمه كما يتبين من عرض افكارهم فى هذا الكتاب والدين برأ منه . وكيف نطلب منهم حسن الاعتقاد فى الاسلام وهم يرون المسلمين يأتون من الاعمال مالا ينطبق على عقل ولم يقل به شرع اللهم الا اذا كان كما فهموه منا . انهم فى الحقيقة معذورون اذا نسبوا اعمالنا هذه الى الدين فانهم لا يفرقون بين ما هو منه وما هو بعيد عنه وليس لهم الا ان يعتقدوا بان عملنا مأمور به لا منهى عنه

الى هنا نمسك القلم ونترك القول للمؤلف سائلين القارىء ان يستصحب معه في قراءة هذه الترجمة ماقدمناه من الملاحظات وبالله الاستعانة وعليه الاتكال فى صلاح الاعمال

مقدمة المؤلف

كنت ذات يوم أجوب جوف الصحارى فى ولاية حوران بين زرقوم وسجير وخلفي ثلاثون فارساً كريماً من أولاد يعقوب يمشون جماعات جماعات لان حدة الخيل كانت تمنع من انتظامها وتجعل بعضها اذا مسه التالى يصهل صهيل الغيظ ثم يلفت وجهه الى الوراء ويضرب بارجله فى الهواء وعما قليل تسكن ثورته وتعود الجياد الى خطاها مطمئنة يسير أمام الكل حاد على فرس عظيمة بيضاء لا يهدأ لمرآها ساكن الجياد وهو يترنم بما ينعش الجمع من كلام أغلبه مديح فى كاتب هذه السطور فكنت فيهم كسلطان يتسابق كل واحد من حاشيته الى ارضائه باستعمال ما حفظ الشرق من اسرار الانحطاط النفسى فى مثل تلك المعاملات وكنت اصغى الى اشعارهم ساعات متتابعة بغير ملل وقد وعيت البعض منها وكلها أراجيز محبوكة الاطراف غير تامة المعنى بذاتها فلا تميز بين المادح والممدوح والمخاطب والمتكلم بحيث يصعب علينا معشر الغربيين ادراك مراميها

وكنت ابلغ الخامسة والعشرين من العمر والفصل فصل الشتاء ويومنا يوم جميل تنشط الابدان حرارته ويبلغ ضوءه حد البهاء وروائحه تنعش السالكين وتجعل المستنشق شاعراً بتمام الحياة يخالجنى مع ذلك احساس آخر هو شغفى بتلك الممدوحة التى كان اسمها يروح ويغدو فى أقوال

أولئك الشجعان . وبينما نحن سائرون على هذه الحالة اذ سكت الشاعر والتفت قائلا بصوت خشن سيدى الآن وقت العصر . هنالك ترجلت الفرسان واصطفوا لصلاة العصر مع الجماعة وصلاة الجماعة مفضلة عند الله فى اعتقاد المسلمين كما هى كذلك عند المسيحيين أما انا فقد ابتعدت عنهم وكنت أود أن لو انشقت الارض فابتلعتنى وجعلت أشاهد البرانس العريضة تنثنى وتنفرج بحركات المصلين واسمعهم يكررون بصوت مرتفع الله اكبر الله اكبر فكان هذا الاسم الالهى يأخذ من ذهنى مأخذاً لم يوجده فيه درس الموحدين ومطالعة كتب المتكلمين وكنت أشعر بحرج لست أجد لفظاً يعبر عنه سببه الحيا والانفعال أحس بان أولئك الفرسان الذين كانوا يتدانون أمامى قبل هذه اللحظة يشعرون فى صلاتهم بانهم أرفع منى مقاماً وأعز نفساً ولو انى اطمت نفسى لصحت فيهم (انا أيضاً اعتقد بالله وأعرف الصلاة وكيف أعبد) فما اجمل منظر أولئك القوم فى نظامهم لصلاتهم بملابسهم وجيادهم بجانبهم ارسانهـا على الارض وهى هادئة كأنها خاشعة للصلاة . تلك هى الخيل التى كان يحبها النبى (صلى الله عليه وسلم) حباً ذهب به الى انه كان يمسح خياشيمها بطرف أزاره عملا بوصية جبريل عليه السلام وكنت ارى نفسى وحيداً فى عرض هذه الصحراء على ما انا به من اللباس العسكرى الضيق الذى يبدو فيه الجسم الانسانى بغير احتشام تلوح علي سمات عدم الايمان فى مكان هو مسقط رأس الديانات كأنى من الحجر أو من الكلاب امام أولئك القوم الذين يكررون الى ربهم صلوات خاشعة تصدر عن قلوب ملئت صدقا وايمانا . وبينما أنا كذلك اذ جال بخاطرى ماورد فى التوراة من أن الله

يسكن خيمة سام ويكثر من اولاد يافث . وقد كان الفريقان مجتمعين في ذلك المكان أولئك المصلون الذين هم من ولد سام معجبون بدينهم وعبادة ربهم ورب اباۤئهم الله الذى دخل خيمة ابراهيم وأنا ابن يافث الذى يمتد ذكره بالحرب والفتوح ولما انتهى بنا الطريق ورجعت الى مكان راحتي جعلت اكتب ماعلق بذهني من الافكار فاحسست انى منجذب بحلاوة الاسلام كأنها اول مرة شاهدت فى الصحراء قوماً يعبدون خالق الاكوان وذكرت خيام النصارى حيث لا متعبد فيها غير النساء وأخذني الغضب من كفر ابناء المغرب وقلة ايمانهم

كنت فى سن يستسهل العقل فيه حل المشكلات ويأخذ الاشياء من ظواهرها ويحل الخيال فيه محل النقد والتنقيب ويعتقد المرء فى الامور بغير قيد وهو سن لو انصف اهلوه لما كتبوا وألفوا وكنت ارى ان جمال الدين أصدق شاهد على انه الدين الحق وصرت أكتب فى الاسلام غير شاعر بما يخطه القلم طوع الفؤاد .

ولو أني اتبعت مجرد الظواهر وقضيت على الامور بغير تأمل وتدقيق لجاء كتابي مذموما ورماني المستشرقون بالخفة والطيش كما يرمون بحق بعض مؤلفي الجزائر من الاوروباويين . ذلك ان المشتغلين بالاسلام فى هذه الايام فريقان المستشرقون الذين هم من افاضل العلماء ومستعربو الجزائر من الافرنج ايضا ومما لا شبهة فيه ان القسم الاول قد افاد العلم اكثر من القسم الثانى فان أعمالهم انتجت كثيراً من العناصر والموادالتى يسهل بها اليوم وضع تاريخ للاسلام لان ذلك التاريخ لايزال مع ماتقدم فى عالم

الغيب وبعدهم يأتي مستعربو الجزائر على نسبة الفرق بين غزارة المادة في العلم وسلامة النظر في الموجودات وهم يعيشون مع المسلمين ويفقهون غور افكارهم ويعلمون حقيقة معيشتهم وكنه دياناتهم معرفة لاتحصل لاحد في غير تلك البلاد وبهذا يرون ان لهم الحق في ان يكتبوا عن الاسلام كالمستشرقين نعم انهم لم يقفوا على جميع ماألفه المسلمون في الحكمة وعلم الكلام ولكني لاأرى ذلك نقصاً كبيرا اذ معرفة حقيقة الاسلام في هذا العصر لاتحتاج الى سعة اطلاع ديني على ان مطالعة جميع الكتب التي وضعت في مبدأ ظهور هذا الدين انما تجب على المؤرخ أكثر من غيره لان علم الكلام وحب الخوض فيه قد اندثر منذ القرن الثاني عشر حيث أصبح الدين الاسلامي قويا متينا لاتؤثر فيه مناقشة الباحثين وتخاصم المنتقدين كما أودت باصول الديانات الاخرى فمن ذلك الحين صار كل مسلم من عالم وجاهل ومن أمير وحقير مؤمنا ايمانا لااحتياج لتحكيم العقل في تحصيله بل هو ايمان وجداني بسيط قوى في النفس متمكن من القلوب وذلك لايشاهد في الامم المسيحية الا عند الفحامين

ومما اوجب الباحثون معرفته على كل مشتغل بالاسلام علم الاسماء المقدسة وهو علم دقيق لا يعرفه المستعربون كثيراً ولم يأت بالفائدة التي كانوا يقصدونها منه ومع ذلك فان العجب يأخذ منهم كل مأخذ اذا قرأوا ترجمة بسم الله الرحمن الرحيم التي تسبق كل سورة من سور القرآن اذ يظهر من تلك الترجمة ان واضعها اراد الوصول الى اصل معنى اللفظ في الوضع ونسي ان ذلك البحث ربما جر الى فقد المعنى الذي يحضر في الذهن

لسماعه ومن الواضح ان سعة العلم وغزارة المادة اذا بنيت على الفرض والتخمين لايحتج بها امام ما اتفق الشعور العام عليه قال المستشرقون ان رحمن اسم وضعته الديانة الوثنية المسيحية لاله الشفقة وهو جائز غير ان هذا اللفظ لايدل عند المسلمين من يوم دخوله فى لغة الاسلام الا على صفة من صفات الله الذى يعبدونه ولم يوجد واحد من بينهم ذهب الا انه اسم من اسماء الالوهية المعروفة قبل الاسلام فلست أرى حينئذ ان المستشرقين مع احترامى لما يقولون قد اكتشفوا على امر يقدح فى صدق القرآن وانه يلزم لذلك نزع معنى الرفق والحنان من لفظة الرحمن لانه معنى يطابق فكر جميع المسلمين فى كل زمان ومكان

ولقد رأيت من الواجب أن أبين الصفات التى تخولنى حق الكتابة عن الاسلام قبل ان انشر كتابى هذا . أنا عاشرت العرب أزماناً طوالا واشتغلت كثيراً بمعرفة حقيقة طباع الشرقيين ومذهبى مذهب مستعربى الجزائر ولذلك أسأل المستشرقين ذوى الاعتبار عفواً وليناً واطلب منهم قبل كل شىء أن لايجمعوا بينى وبين اولئك الذين يميلون الى العرب فيكتبون عن الاسلام ماتلقفوه اثناء سياحة قصيرة فجاء قولهم قولا شعرياً حتى ان موسيو (لوازون) لم ينج من هذه السقطة بل طاش قلمه وجذبته التخيلات فكان ممن يرى كل شىء فى الشرق جميلا وجاء رأيه فى الاسلام رأى قوال لا رأى باحث حكيم وعليه فلست أقصد بكتابى هذا أن امجد الاسلام ولكنى لما رأيت انه صار من المسائل الكبرى التى اشتغلت بها أذهان الباحثين فى العصر الحاضر وأسست من أجله مجلة علمية فى باريس

نال بها المسلمون نجاحاً أدى الى ان المسيحيين ومنهم أولاد الصليبيين يساعدونهم بالمال على اقامة مسجد يعبدون الله فيه انتهزت فرصة هذا الميل وأردت التنبيه الى بعض اغلاط علقت بالافكار عندنا من حيث النبي العربي ودينه الاسلامي وهو عمل شاق وموقف حرج اذ من المعلوم كما قيل انه لا يرسخ في الاعتقاد اكثر من خطأ الاعتقاد كذلك ارى انه لا يكفي لامة مسيحية متمدنة ان تحترم دين المسلمين من رعاياها بل يجب عليها ان تسعى الى معرفة ذلك الدين كما ينبغي فنحن نضحك اشفاقاً من سماع الاقاصيص التي نقرأها عن بغض المسلمين للمسيحيين ونقول أولئك قوم جهلة متعصبون وانهم في بغضهم لنا مخطئون الا ان المسيحيين هم كذلك في بغضهم للمسلمين لا يعدلون واشد الاوهام رسوخاً عندنا بالنظر الى الديانة الاسلامية ما اختص منها بشخص النبي ولذلك قصدت ان يكون بحثي اولا في تحقيق شخصيته وتقرير حقيقته الادبية على اني اجد في هذا البحث دليلا جديداً على صدقه وامانته المتفق تقريباً عليها بين جميع مؤرخي الديانات واكبر المتشيعين للدين المسيحي

الفصل الأول

﴿ صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴾

محمد والاغاني المعروفة باغاني الاشارات ـ محمد والتاريخ ـ اصل الاعتقاد ـ الوحي بالقرآن ـ ليس محمد مبتدعا ـ هل كان على الدوام صديقا ـ وفاته

كنت كلما بحثت فى الديانات مع صاحب لى من طلبة العلم فى تلمسان وأراد الهرب من الجدال يجيبنى هم يقولون ان لله ولداً وان محمداً لمن الساحرين اجابة مملوءة بالاحتقار كما يجب المعتقد وثنياً يريد أن يشفق عليه وذلك مع مبالغته فى احترامى وحسن الصلات بيننا وكان يرى ان التثليث خرافة فادحة كسحر محمد وان المسيحيين الذين اخترعوا البدعتين قوم لا ينبغى الجدال معهم ولست أدرى ما الذى يقوله المسلمون لو علموا أقاصيص القرون الوسطى وفهموا ما كان يأتى فى أغانى القوال من المسيحيين فجميع أغانينا حتى التى ظهرت قبل القرن الثانى عشر صادرة عن فكر واحد كان السبب فى الحروب الصليبية وكلها محشوة بالحقد على المسلمين للجهل الكلى بديانتهم وقد نتج عن تلك الاناشيد تثبيت هاتيك القصص فى العقول ضد ذلك الدين ورسوخ تلك الاغلاط فى الاذهان ولا يزال بعضها راسخاً الى هذه الايام فكل ناشد كان يعد المسلمين مشركين غير مؤمنين وعبدة اوثان مارقين وقد

جعلوا لهم ثلاثة آلهـة هم على ترتيب درجاتهم ما هوم ويقال ما هوم وبافوميد وماهوميد وهو محمد (صلى الله عليـه وسلم) ثم (أبلّين) ثم (ترفاجان) وذهبوا الى ان محمداً وضع دينه بادعائه الالوهية ومن المستغربات قولهم ان محمداً الذى هو عدو الاصنام ومبيد الاوثان كان يدعو الناس لعبادته فى صورة وثن من ذهب كما كان يعتقد (الكرلوفنجيون) وان المسلمين لما غلبهم الافرنج وصدوهم الى اسوار سرقسطه عادوا الى اصنامهم فحطموها كما طنطن به احـد منشدى ذلك العصر حيث قال (وكان ابلين الههم فى مغارة هناك فتراموا عليه واوسعوه شتما وسبا وصلبوه من يديه فى احـد العمدان وجعلوا يدوسونه باقدامهم ويوجعونه ضربا بالعصى حتى هشموه واما (ماهوم) فقد رموه فى حفرة وتركوا الكلاب والخنازير تنهشـه وتمشى عليه وتلك اهانة لم تصب الهاً قبله) ويظهر ان المسلمين لم يلبثوا ان تابوا من ذنبهم واستغفروا آلهتهم وأصلحوا ما أتلفوه منهـا ولذلك أمر الامبراطور كاراوس بابادتها لما دخل سرقسطه كما جاء فى قول ذلك الشاعر (وقد أمر الامبراطور الفرنساويين فطافوا جميع انحاء المدينة ودخلوا المساجد والجوامع وبأيديهم مطارق من حديد فكسروا ابهاماهوميد وجميع الاوثان والاصنام) وكذلك يقول (ريشار) فى أناشيده وهى جميلة لاشىء من الخراف فيها الا انها زور وبهتان حيث يطلب من الله أن يوقع الفشل العميم بين (أولئك الذين يعبدون بصورة ماهوم) ثم جعل يحرض الاشراف على الحرب المقدسة وينصحهم أن ينكسوا أصنام المسلمين) قوموا ونكسوا صنم ماهوميد وترفاجان وصبوهم على النار وقدموهم الى ربكم) وذهبوا الى

ان صورة ماهوم كانت تصنع من أنفس الاحجار والمعادن باحكم صنع وأدق اتقان ومن قرأ وصفه في اناشيد (رولان) كاد يخاف ان ذلك الشاعر انما يصف عن خبر وعيان يقول وكانت كلها من الذهب والفضة لو شاهدتها لأيقنت بانه لايمكن للعقل ان يتصور اجمل منهاعظيمةالشكل لطيفة الصنع تلوح على وجهها سمات الشهامة . كان (ماهوم) من ذهب وفضة يأخذ بريقها بالابصار قد وضع فوق فيل على جلسة من أجمل المصنوعات خاوياً من جوفه فيرى الضوء من خلاله مرصعاً بنفائس الاحجار المضيئة يرى الناظر باطنه من الظاهر وهو صنع عز عن المثال والنظير)ولما كانت الآلهة تنزل الوحي وقت الشدائدوانهزم المسلمون في احدى غزواتهم بعث قائدهم الى مكة يطلب ربه قال الراوي فجاء الاله محمد في موكب عظيم يضرب بالطبل والمزامير ضرباً يسمع له دوي قاصف وبعضهم يغني بالمزمار والآخر بصفارة من الفضة والكل حولهم يرقصون ويغنون باعلى أصواتهم واقبلوا به فرحين حيث المجلس معقود والخليفة الديني في انتظاره فلما رآه قام يعبده بخضوع وخشوع ثم أخذ (ريشار) بعد ذلك يقص كيفية مناجاة أولئك الوثنيين لذلك الصنم الذي وصفه بالتجويف وان لاشيء في باطنه الا ويرى من الخارج فقال (وقد وضعوا في جوفه عفريتاً استحضره السحرة وصار ينط ويعربد ثم أخذ يكلم للمسلمين وهم يسمعون) ولقد زاد بعضهم لذلك الصنم حتى جعلوه علامة على الدين الاسلامي كما جعلوا الصليب علامة للدين المسيحي فروى (بودوان) في نشيده على الكونتسه

(بونتيو) لما أرادت ان تعتنق الاسلام امام صلاح الدين انها قالت (اريد أن أعبد محمداً فائتونى به فلما صار بين يديها خرت ساجدة اليه) ويأخذ القارىء من نشيد آخر يظهر انه وضع تتمة لاناشيد (بودوان) وجود الهين للمسلمين غير الذين سبق ذكرهم وهما (باراتون) و (جوبين) الا ان الثلاثة الاولين هم الرؤساء ولما ردأحد قواد المسيحيين جيش المسلمين الذى خرج من مكة أخذ الشاعر يصف اضطراب المسلمين كما يأتى (وقد جعل الوثنيون يصيحون ويصرخون ويموجون بينهم ويهرجون وينادون باعلى اصواتهم يا (ترفاجان) يا (ماهوم) ومع ذلك يوجد نشيد من اناشيد القرون الوسطى لايرى فيه القارىء رمزاً الى محمد بالصنم وهو للقسيس (اسكندردويون) الفه سنة ١٢٥٨ ميلادية اخذاً عن مسلم تنصر من ذوى الاعتبار وعد الناس تلك القصة تاريخا صحيحاً عن ذلك النبي وقد جاء فيها (انه من المعلوم ان محمداً كان عالما بطرق المكر والخيانة والخداع) ثم شبهه باحد الامراء المحاط باتباعه ينشر دينه على ابسط حال حتى اعتقده الناس أكثر مما اعتقدوا حبر رومة

ولقد أطلنا القول فى تلك الاضاليل لان تاريخ (اسكندر) المذكور لم يزلها ولانها تركت أثراً فى الاذهان وصل الى اهل هذه الايام وتشبعت به افكارهم فى النبي وكتابه

ولو سأل سائل هل كان اولئك المنشدون يعتقدون صحة مايقولون لاجبناه جواب اهل نورمندة لا ونعم اذ من المحقق ان الاختلاط بين المسيحيين والمسلمين سهل للمنشدين معرفة الدين المحمدى على حقيقته

ولكنهم ماكانوا يقصدون الحقائق التاريخية في اناشيدهم بل حفظ روح البغضاء في نفوس قومهم فاحتاجوا فى ذلك الى وصف المسلمين ونبيهم ودينهم بالاوصاف التى تؤثر فى نفوس المنشود لهم على حسب معارفهم واميالهم واذا انتقلنا من شعراء القرون الوسطى الى من جاء بعدهم من المؤرخين والمتكلمين (الباحثين فى علم التوحيد) الذين يظهر على كتبهم فى ذلك الزمن انهم ميالون الى الاعتدال وجدنا مؤلفاتهم محشوة بتلك الاقاصيص الخرافية مملوءة بالطعن والشتائم فى نبي المسلمين وكان المصلحون (هم البروتستان ايام دعوتهم لاصلاح الدين المسيحى)أشد تعصباً ضده من غيرهم فقد اعتنى (بيبلياندر) بتشبيه محمد بالشيطان وعاملوا كتابه وشرعه كما عاملوه ولسنا نقيم برهاناً على ما نقول غير توجيه نظر القارىء الى مطالعة ما جاء فى مقدمة كتاب (ريلان) الذى ألفه سنة ١٧٢١ تحت عنوان (ماهو السبب فى ان الناس عامة لا يعرفون من الديانة المحمدية الا شيئاً يسيراً) حيث يقول (لو اراد الباحثون ان يصموا مذهبا او طريقه بوصمة الخزى والعار نسبوها الى محمد فقالوا مذهب محمدى او طريقة محمدية وهكذا) وألف القس (دون مارتينو الفرنسو فيقالدو) كتابا سماه سراج الكنيسة المقدسة الذهبي جاء فيه (ان كتاب محمد لا تلزم قراءته بل يجب ان يسخر به وان يحتقر ويرمى فى النار أنى وجد ولا يليق ان يحفظه الناس لانه عمل بهيمى) وبعضهم كان لا يقول بحرقه ولكنه يرى (من العبث ان يجهد الانسان نفسه ويزيد ايلامها بحفظ هزيئات وأمور تافهة منشأها خيالات شخص اختل عقله واضطربت قواه)

وأما المسلمون فمن اسمائهم فى تلك الكتب البلدة والكسالى والحمير والحمير الوحشية والمقوتون لذين يملأون المنزل بالنساء فى الليل ويطلقونهن فى النهار ولو اردت الاطلاع على جعبة الشتائم والسباب فمليك بكتاب الفه احد اليسوعيين وهو (پروشار) وسماه مرشد السياحه وقدمه الى الامير (فيليب روقالو) سنة ١٣٣٢ وذكر فيه الاسباب التى تحمله على الدعوى الى حرب صليبية فقال (من ذا الذى لا يزرف عبرات الدمع عند ما يعلم أى الرجال هم قابضون اليوم على تلك البقاع التى هي ميراثنا أولئك قوم لا رب لهم ولا دين يهديهم ولا شرع يرجعون اليه ولا عهد ولا حنان أولئك قوم اخساء ادنياء وهم اعداء لكل حقيقة فى الوجود وكل صفاء وكل خير وكل عدل أولئك هم أعداء الصليب الكافرون بالله المضطهدون للمسيحيين المفرطون فى نسائهم الفاسقون بالاطفال الظالمون لعجم الحيوانات المخالفون لطبائع البشر القتالون للفضائل المميتون للاخلاق الغارقون فى القبائح والخطايا أولئك هم أولياء الشيطان وانصار الدنايا ذوو حقد وبغض ذوو افكار سافلة واعمال سخيفة وعيشة دنيئة وأقوال بذيئة وعشرة سوء معدية لا تنصرف ارادتهم ولا تتجه هممهم الا الى اللذائذ البهيمية والمعيشة الهمجية أولئك هم القوم الذين ابعدونا عن هاتيك البقاع وأذوونا فى هذه البقعة الصغيرة التى نحن فيها مستهزئين بنا وساخرين بديننا أولئك هم الذين خربوا بيت الله وملكوا المدينة المقدسة التى هى مهبط شرعنا ولوثوا اماكنها المقدسة المطهرة)

ولم يزل هذا الروح سائداً عند المسيحيين حتى ان المستشرق

(بريدو) الانكليزى الف سنة ١٧٣٣ كتابا في سيرة النبي عنوانه (حياة ذى البدع محمد) وترجمه بعضهم الى لغتنا وجعل له مقدمة بين فيها مقصد المؤلف فقال (ان غرض واضع هذا الكتاب هو خدمة المقصد المسيحى الحكيم بذكر حياة ذلك الرجل الشرير محمد) أولئك كتاب ما قصدوا التاريخ ولكنهم ارادوا خدمة المقصد المسيحى الحكيم كما يقولون وكان سلاحهم الوحيد في تأييد سواقط حججهم ان يشبعوا خصمهم سبا وشتما وان يحرفوا في النقل مهما استطاعوا واراد (داماسين) ان يخالفهم في التأليف لكونه تربى فى دمشق الشام وكان مقربا عند الخلفاء فجعل يرد مذهب الاسلام من غير تعصب لذلك عده بدعة في الديانة المسيحية تقرب من بدعة (اريوس) ومع ذلك فلم تؤثر عبارته في رأى الغربيين بل ظلوا يعتقدون الخرافات في النبي وقرآنه وكان رؤساؤهم الروحانيون يجتهدون دائما في تأييدها وتمكينها من الاذهان وهي سياسة جعلت الناس عندنا يهزأون بالدين الاسلامي واغنت البابوات عن حربه حربا صحيحا فقد كانت الكنيسة اللاتينية في القرن الثامن مشتغلة بامور أخرى لان الكنيسة الشرقية كانت واقعة بين عاملين مضرين هما احزاب النفس الواحدة في جسدين واحزاب النفس في جسم واحد

ولم يبدأ في البحث عن الاسلام بغير تعصب ولا تشيع الا في زمننا هذا ففي القرن التاسع عشر اخذ الباحثون ينظرون الى المسئلة نظر الناقد البصير وكان من وراء ذلك ان افترق الناس في القرآن الى معجب به وطاعن فيه ومع ذلك لا نزال نرى في لسان هذا القسم الاخير ماتشم منه رائحة

تأثرهم بالافكار الماضية قال موسيو (دروختى) فى سياحته فى بلاد العرب التى نشرها سنة ١٨٧٨ عن النبي (انه عربى خائن دنى) وقد نسى ان هذه الالفاظ التى يشمئز منها السامع لم تعد تصلح اليوم حجة على صحة الدعوى

وأول مادار البحث فيه مسئلة صدق النبي فى رسالته وقد قلنا ان ذلك متفق عليه بين المستشرقين والمتكلمين على التقريب ومعلوم انه لا ارتباط بين هذه المسئلة وبين كون القرآن كتابا منزلا ولسنا نحتاج فى اثبات صدق النبي الى اكثر من اثبات انه كان مقتنعاً بصحة رسالته وحقيقة نبوته اما الغرض من تلك الرسالة فى الاصل فهو اقامة اله واحد مقام عبادة الاوثان التى كانت عليها قبيلته مدة ظهوره وبيان ذلك ان اسماعيل لما حنقت عليه ساره وطرد من عائلة ابيه توجه الى بلاد العرب ونقل اليها ديانة أبيه ابراهيم الا انه لم يبق بين العرب من تلك الديانة سوى شيء قليل يشبه الخيال اذ لم يكن عندهم من يذكرهم على الدوام بان رب ابراهيم هو رب عزيز لا يقبل له شريكا كما حصل ذلك لبنى اسرائيل ولا يزال هذا الاعتقاد يزول شيئاً فشيئاً وتحل محله عبادة الآلهة التى كانت معروفة فى أمم أخرى حتى تنوسى دين اسماعيل تماماً ثم دخلت اليهودية فى بعض القبائل المجاورة لبلاد الشام ولكن الديانة المسيحية لم تعلق فى تلك البقاع حتى ان (تيث) قس بصره اعترف فى القرن الرابع بان معيشة العرب الرحالة النقالة تمنع من انتشار تلك الديانة فى بحيث جزيرة العرب

تلك هى حالة الدين ببلاد العرب الى قرن السابع وقد بحث فيها الكتاب كل على حسب امياله وكما اعتقد لذلك تناقضت اقوالهم

فى اعتبارها والحكم على اهلها فقال موسيو (رونان) لا يوجد فى تاريخ التمدن كله صورة اجمل من حالة بلاد العرب قبل الاسلام ومن رأيه ان القبائل فى تلك البقاع كانت تدين باليهوديه أو بالدين المسيحى وكانت مشتغلة بحركة دينية عظيمة وقال موسيو (بارتيلى سانت هيلير) لو صح أن أولئك الاقوام كانوا على جانب عظيم من التمدن كما يدعون لما احتاجوا الى تلك التعاليم الادبية التى تقشعر ابداننا لسماعها (حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت) ومن رأى هذا المؤلف ان العرب كانت أمة متبربرة فى حالة من التوحش تقرب من حالة العبرانيين ايام بعث فيهم موسى بمثل ماتقدم من التحاريم. ولست أريد الخوض فى ترجيح أحد الرأيين ولكنى أرى ان التوسط فى الامر اقرب الى الصواب وان امة العرب قبل النبي كانت وثنية على وجه العموم وكان مذهب توحيد الاله يخطر فى الاذهان رويداً رويداً وكان المشخصون لهذا الاعتقاد فريق يقال لهم الاحناف بقوا على مذهب ابراهيم (عليه السلام) واما المسيحيون فكانوا فرقا كثيرة كلها تعتقد بمذهب التكثير (تعدد الالهة) وتلقى محمد مذهب اولئك الاحناف بحالة سطحية لكن لما كانت نفس ذلك النبي مفطورة على التشبع بالدين تكيف هذا المذهب فى وجدانه حتى صار اعتقاداً لم تصل اليه نفس قبله الا قليلا وهو ذلك الاعتقاد المتين الذى احدث انقلابا كليا فى النوع البشرى ومن الخطأ ان نبحث عن هذا المبدأ العميم فيضه فى غير طريقة الاحناف لان محمدا ما كان يقرأ ولا يكتب بل كان كما وصف نفسه مراراً نبياً أميا وهو وصف لم يعارضه فيه احد من

معاصريه ولاشك انه يستحيل على رجل فى الشرق ان يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس لان حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان على ان القراءة والكتابة كانت معدومة فى ذلك الحين من تلك الاقطار ولم يكن بمكة قارئ أو كاتب سوى رجل واحد ذكره (جارسين دى تاسى) فى كتابه الذى طبعه سنة ١٨٧٤ كذلك من الخطأ مع معرفة اخلاق الشرقيين ان يستدل على معرفة النبي للقراءة والكتابة باختيار (السيدة) خديجة (رضى الله عنها) اياه لمتاجرها في الشام ولم تكن لتعهد اليه اعمالها ان كان جاهلا غير متعلم فانا نشاهد بين تجار كل قوم غير العرب وكلاء لا يقرأون ولا يكتبون وهم فى الغالب أكثرهم امانة وصدقا

ثبت اذن مما تقدم ان محمداً (صلى الله عليه وسلم) لم يقرأ كتابا مقدسا ولم يسترشد فى دينه بمذهب متقدم عليه خلافا لما ذهب اليه (اسكندر دويون) حيث (يقول انه كان يعرف دين اليسوع قراءة وكتابه) نعم ان البحث عن معرفة المصادر التى عساه يكون تلقى عنها بالمشافهة ديانة المسيح أو الديانة اليهودية أو ديانة عباد الكواكب قد يكون مفيدا لمعرفة الموافقات التى جاءت بين القرآن وبين التوراة الا انه بحث ثانوى اذ لو فرض وكان القرآن قد نقل بعضا من الكتب المقدسة الاخرى لبقى الامر مشكلا كما كان عليه فى معرفة حقيقة ما اختلج بروحه الدينى وكيف وجد فيها ذلك الاعتقاد الثابت بوحدانية الله حتى استولى عليه روحا وجسما ولقد نعلم انه مر بمتاعب كثيرة وقاسى آلاما نفسية كبرى قبل ان يخبر برسالته فقد خلقه الله ذا نفس تمحصت للدين ومن أجل ذلك احتاج الى العزلة عن الناس لكى يهرب من عبادة

الاوثان ومذهب تعدد الالهة الذى ابتدعه المسيحيون وكان بغضهما متمكناً من قلبه وكان وجود هذين المذهبين اشبه بابرة فى جسمه (صلى الله عليه وسلم) ولكى ينفرد بما نزل فيه من الفكر العظيم وهو وحدانية الله تعالى اعتكف فى جبل حرى وارخى العنان لفكره يجول فى بحار التأملات عابداً متهجداً ومضت عليه بهذه الحالة ليال من ليالى هاتيك البقاع التى تملأ النفس انشراحا حتى جاء عنها فى لسان العامة ان الملائكة تسأل ربها لو أذن لهم فيهبطوا من السماء لقضاء ليلهم على الارض اعجاباً بجمال الليل فيها وشوقا الى صفاته وجلاله

ولعمرى فيم كان يفكر ذلك الرجل الذى بلغ الاربعين وهو فى ريعان الذكاء ومن اولئك الشرقيين الذين امتازوا فى العقل بحدة التخيل وقوّة الادراك لا بوضع المقدمات وتعليق النتائج عليها ما كان الا ان يقول مراراً ويعيد تكراراً هذه الكلمات (الله احد الله أحد) كلمات رددها المسلمون أجمعون من بعده وغاب عنا معشر المسيحيين مغزاها لبعدنا عن فكرة التوحيد ولم يزل عقله مشتغلا حتى ظهر هذا الفكر فى كلامه على صور مختلفة جاءت فى القرآن (لم يلد ولم يولد ولم يكن له شريك ولم يكن له كفؤاً احد) وكانت مترادفات اللغة العربية تساعده بمعانيها الرقيقة على ترداد ذلك الفكر السامى الذى دلّ عليه ومن تلك الافكار وتلك العبادة تولدت كلمة الاسلام (لا إله الا الله)

ذلك هو اصل الاعتقاد بإله فرد ورب صمد منزه عن النقائص يكاد العقل يتصوّره وهو اعتقاد قوى يؤمن به المسلمون على الدوام ويمتازون به

على غيرهم من القبائل والشعوب اولئك حقاً هم المؤمنون كما يسمون انفسهم بالسنتهم . ولقد يستحيل ان يكون هذا الاعتقاد وصل الى النبي (صلى الله عليه وسلم) من مطالعته التوراة والانجيل اذ لو قرأ تلك الكتب لردّها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته مخالف لوجدانه منذ خلقته فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو اعظم مظهر في حياته وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته

وأما مسئلة الوحي بالقرآن فهي اكثر اشكالا واكبر تعقيداً لان الباحثين لم يهتدوا الى حلها حلا مرضياً والعقل يحار كيف يتأتى ان تصدر تلك الآيات عن رجل أمي وقد اعترف الشرق قاطبة بانها آيات يعجز فكر بني الانسان عن الاتيان بمثلها لفظا ومعنى آيات لما سمعها عقبة ابن ربيعة حار في جمالها وكفى رفيع عبارتها لاقناع عمر بن الخطاب فآمن برب قائلها وفاضت اعين نجاشي الحبشة بالدموع لما تلى عليه جعفر بن ابي طالب سورة زكريا وماجاء في ولادة يحيي وصاح القسس ان هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى قال ناقل هذه الرواية (كوزان دى بيرسوفال) فلما كان اليوم الثاني طلب النجاشي جعفر واشار اليه بتلاوة ما في القرآن عن المسيح ففعل واستغرب الملك لما سمع ان المسيح عبد الله ورسوله وروح منه نزل في أمه مريم ثم تناول قضيباً دقيقاً كان أمامه وقال لجعفر ان الفرق بين ما سمعناه منك الآن عن عيسى وبين ماتقوله ديانتنا عنه لا يزيد عن سمك هذا القضيب وقد قوى ذلك القضيب فمنع الحبشة من الاسلام وجعلها مسيحية الى الآن) لكن نحن معشر الغربيين لا يسعنا ان نفقه معاني القرآن كما

هى لمخالفته لافكارنا ومغايرته لما ربيت عليه الامم عندنا غير انه لا ينبغى أن يكون ذلك سبباً فى معارضة تأثيره فى عقول العرب ولقد أصاب (جان جاك روسيو) حيث يقول (من الناس من يتعلم قليلا من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ولو انه سمع محمداً (صلى الله عليه وسلم) يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المشبع المقنع الذى يطرب الاذان ويؤثر فى القلوب والتفت الى أنه كلما بدت أحكامه أيدها بقوة البيان وما أوتيه من بلاغة اللسان لخر ساجداً على الارض وناداه أيها النبي رسول الله خذ بيدنا الى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والاخطار فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار قال (بولا تقيلير) انى لاعترف بانه من الصعب ان يظن الانسان ولا يتحير فى أمره ان قوة الفصاحة الانسانية تؤثر ذلك التأثير خصوصاً وانها تصدر عالية بغير ضعف أبداً وتتجدد رفيعة معجزة اذ تقصر دون تمثيلها رجال الارض وملائكة السماء وقد أشار المؤلف فى كتابه الى الآية الآتية

(أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين — فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا ان ما أنزل بعلم الله وان لا اله الا هو)

وكيف يعقل ان النبي ألف هذا الكتاب باللغة الفصحى مع انها فى الازمان الوسطى كاللغة اللاتينية ما كان يعقلها الا القوم العالمون ولقد أعجب من موسيو (رينارد دوزى) فى كتابه تاريخ الاسلام حيث يقول فى الصحيفة العشرين بعد المائه (ان فى القرآن أغلاطاً نحوية كثيرة وان تلك

الاغلاط. جعلت فيما بعد من جملة قواعد النحو أو مستثنيات من قواعده)
ولعمري أي مصدر اعتمد عليه ذلك المؤلف فيما ادعى مع اننا لم نعهد كتباً نحوية قبل الاسلام ولو صح وجود شيء منها فلابد انه كان عزيزاً نادراً وقد شاهدنا ان اناساً وما كان أكثرهم أميين قاموا في أمة العرب وادعوا النبوة منهم مسيلمة الذي زعم انه قرين محمد أتى بسور سخر العرب منها ولو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولي على الافكار ويأخذ بمجامع القلوب . أتى محمد بالقرآن دليلا على صدق رسالته وهو لا يزال الى يومنا هذا سرا من الاسرار التي تعذر فك طلاسمها ولن يسبر غور هذا السر المكنون الا من يصدق بانه منزل من الله اللهم الا اذا اعتمدنا على قول مجددي الديانة المسيحية مما كنا نرتاح اليه ايام شبيبتنا وهو يرجع الى ان القرآن تأليف فاتح اراد تأييد سلطته فجمع من كتب اليهود والمسيحيين قانونا اودعه بعض قواعد الادب والدين واضاف اليه قصص الوقائع العظيمة لتأييد رسالته) وعلى كل حال أي سواء توصلنا الى معرفة حقيقة القرآن أم لا فلا ينكر أحد ان مظهر محمد كان مظهر نبوة بالفعل بقطع النظر عن صدق تلك النبوة وعدم صدقها لان النبوة من حيث هي عبارة عن قيام رجل يملي على الناس أمر ربه ويعتقد حقا ان ما يقوله آت من عند الله وهو تعريف اعلم ان المسيحيين لا يقبلونه سواء كانوا من المتكلمين أو الحكماء الباحثين الا انني ما اردت به التوفيق بينهما بل قصدت به تمهيداً للايضاحات التي اريد ان اقدمها للقراء في عرض رسالتي .

وعلى ما تقدم أقول ان لظهور النبوة سببين مختلفين فاما ان تكون

صادرة عن وحي سماوي أو عن انقاد فى الذهن واشتداد فى حركة النفس الباطنية والمتأثر باحد هذين السببين ينفعل به قهرا غير مختار فهو صادق على الحالين وتكون النبوة حقيقية أو كاذبة بحسب المؤثر فيها فان كان الهيا فالاول والا فالثاني ولو رجعنا الى ماوضحه الحكماء عن النبوة ولم يقبله المتكلمون من المسيحيين لامكننا الوقوف على حالة مشيد دعائم الاسلام وجزمنا بانه لم يكن من المبتدعين فمحمد كما قال (أيوالد) عن انبياء بنى اسرائيل اعتقد ان روحا من الله استولت على لبه فلم يعد يشعر بان له فكراً خاصا بل انه أوتيه من عند ربه واختفت فى نظره انانيته ولم يعد يسمع غير صوت ذات فوق ذاته ومن) الصعب ان تقف على حقيقة سماعه لصوت جبريل (عليه السلام) هل كان ذلك فى الحلم أو غيبوبة فى عالم التصورات الالهية على ان معرفة هذه الحقيقة لاتغير موضوع المسئلة لان الصدق حاصل فى كل حال

كذلك لو قال قائل ان القرآن ليس كلام الله بل كلام محمد (صلى الله عليه وسلم) فلابد لنا على الحالين من الاعتراف بان تلك الآيات البينات لاتصدر عن مبتدع ابداً خلافا لرأى من ذهب الى تكذيب نبوته ولعل رأيهم جاء من ضيق اللغة التي تلجئنا الى ان نرمى بالكذب نبياً هو في الحقيقة شخص ملئ امانة وصدقا.

ولقد نعلم ان الصوت الذى كان يسمعه نبي المسلمين شبيه بالصوت الذى ايقظ ايوانس من قبله فقال له (ياايها المدثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر) فلما سمع ذلك تلكأ وتباطأ واستعصى على هذا النداء فضعفت صحته واستولى عليه الهلع كرجل يخاف ان يذهب لبه ثم انتهى

به الحال الى ان صدع بامر ربه وجعل يبشر الناس وحصل على شئ من الراحة وان لم ينلهـا بتمامها لانه كان كثير التـألم كما يؤخـذ ذلك من سورة هود والقارعة والحاقة

ومن ذلك الحين أخذت شفتاه تنطلق بالفاظ بعضها أشـد قوة وابعد مرمى من بعض والافـكار تتـدفق من فمه على الدوام الى ان يقف لسـانه ولا يطيعه الصوت ولا يجد من الالفاظ مايعبر به عن فكر قد ارتفع عن مدارك الانسان وسما عن ان يترجمه قلم أو لسـان وكانت تلك الانفعالات تظهر على وجهه بادية فظن بعضهم ان به جنة وهو رأى باطل لانه بدأ رسالته بعد الاربعين ولم يشاهد عليه قبل ذلك أى اعتلال فى الجسم أو اضطراب فى القوة المادية وليس من الناس من عرف الناس جميع احواله في حيـاته كلها مثل (النبي صلعم) فلقد وصل المحدثون عنه الى انهم كانوا يعدون الشعر الابيض فى لحيته ولو انه كان مريضاً لما أخفى مرضه لان المرض فى مثل تلك الاحوال يعتبر امرا سماويا عند الشرقيين وليست حالة محمد (صلعم) فى انفعالاته وتأثراته بحالة ذى جنة بل كانت مثل التى قال نبى بنى اسرائيل فى وصفها (لقد شعرت بان قلبي انكسر بين اضلعى وارتعشت منى العظام وصرت كالنشوان لما قام بى من الشعور عند سماع صوت الله واقواله المقدسة)

اذن ليس محمد من المبتـدعين ولا من المنتحلين كتابهم وليس هو نبي سلاب كما يقول موسيو (سايوس) نعم قد نرى تشابها بين القرآن والتوراة فى بعض المواضع الا ان سـببه ميسور المعرفة ذلك ان محمـداً كان يلصق ديانة الاسلام بالديانتين المسيحية واليهودية فالبحث مباح فيما اذا كان مذهبه

صحيحاً أو موضوعا اتخـذه ليؤيد به الحقيقة الدينية من حيث هي ولـكن لا نسلم انـكار هذه الحقيقة وحينئذ لا عجب اذا تشابهت تلك الـكتب في بعض المواضع خصوصاً اذا لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها كما ان (النبي صلى الله عليه وسلم) خاتم الانبياء والمرسلين

والآن نلخص لك مذهب نبي المسلمين في الديانات الثـلاث فنقول ان دين الانبياء كان كله واحداً فهم متحدون في المذهب منذ آدم الى محمد وقد نزلت ثلاث كتب سماوية وهي الزبور والتوراة والقرآن . والقرآن بالنسبة الى التوراة كالتوراة بالنسبة الى الزبور أو ان محمداً بالنظر الى عيسى كعيسى بالنظر الى موسى ولـكن الامر الذي تهم معرفتـه هو ان القرآن آخر كتاب سماوي ينزل للناس وصاحبه خاتم الرسل فلا كتاب بعـد القرآن ولا نبي بعد محمد (صلعم) ولن تجد بعده لـكلمات الله تبديلا اذا تقرر هذا لم يعد هنالك وجه للاستغراب من وجود بعض التشابه بين القرآن والتوراة فمحمد كعيسى قال انه بعث ليتمم رسالة من قبله لا ليبيدها فلم يكن من امره الا ابتعاد عمن تقدمه ولذلك كان يصرح على الدوام بانه يعيد على الناس ما نزل على الانبياء من قبله وكان يسمع صوتا من السماء يقول له (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داوود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما) وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا

فاعبدون (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون بالبينات والزبر وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون) على ان بعض المشابهات لا تحتاج الى مثل هـذا التفسير اذ نفس محمد كانت متأثرة بما تأثرت به نفوس الانبياء من بنى اسرائيل وكان يعبد الله الذى عبدوه فلا عجب ان تشابهت الفاظ التضرعات وتجانست أصوات الدعاء

اذن لا يمكن ان ننكر على محمـد (صلعم) فى الدور الاول من حياته كمال ايمانه واخلاص صدقه فاما الايمان فلم يتزعزع مثقال ذرة من قلبـه فى الدور الثانى وما أوتيه من النصر كان من شأنه ان يقويه على الايمان لولا ان الاعتقاد كله قد بلغ منه مبلغاً لا محل للزيادة فيه ولم يكن فيه عيب بل ان مانسبوه اليه من هذا القبيل لا يؤثر بشىء على سيرته الطاهرة فما كان يميل الى الزخارف ولم يكن شحيحاً بل كان كما قال أبو الفداء يستدرّ اللبن من نعاجه بنفسه ويجلس على التراب ويرتق ثيابه ونعاله بيده ويلبسها مرقعة مرتقة وكان قنوعا خرج من هذا الباب كما رواه أبو هريرة ولم يشبع من خبز الشعير مرة فى حياته هـذا هو النبى الذى قال عنه المتشدون من النصارى (انه كان منهمايأتى المغنيات فى الحانات) تجرد من الطمع وتمكن من نوال المقام الأعلى فى بلاد العرب ولكنه لم يجنح الى الاستبداد فيهـا فلم يكن له حاشية ولم يتخذ وزيراً ولا حشما وقد احتقر المال والمعالى وبلغ من السلطان منتهاه ولم يكن له من علامات الامارة والملك سوى قضيب من الفضة مكتوب عليه (محمد رسول الله) ولم يكن فيه عيب الا كما خلق

الله الانسان قال (رونان) خلق الانسان ضعيفاً فلا يقوى على احتمال الرسالة الربانية زمناً طويلاً ومن لم تطل مدة رسالته فهو من البررة المعصومين) ومع ذلك فرونان لا يعتقد بصدق رسالة النبي العربي

على انه لو صح انه كان فيه عيوب اكبر مما نسب اليه لما قدح ذلك في رسالته لان هبة النبوة كمواهب الوحي لا تستلزم حتما خلو من اختص بها فلقد هوى داوود مع بنت صابا ونحن نعلم ان من ذريته المباركة أنبياء بنى اسرائيل وان الله ينزل حكمه آيات تحار فيها الافكار ومهما اجتهدنا في ادراك كل معنى من معانيه فانا به جاهلون فلقد وعد ملوك بنى اسرائيل ان يرسل المسيح من أصلابهم ورأينا ان عيسى ولد على غير ما عهدوا

على ان محمداً (صلعم) كان يقول عن نفسه انه يخشى العذاب ويسأل الله الغفران وكم من مرة شوهدت على وجهه علائم الهلع وما به من هول رسالته عند ما كان يتلو على الناس آيات الفزع الاكبر

هذا ما كان من صدقه وأمانته في السنين الاولى من بعثته حتى سماه معاصروه بالامين وأما حاله في بقية مدته بعد ان صار رئيسا سياسياً فالاستدلال عليه ادق وادعى الى طول البحث والتنقيب قال (ريناردوزى) يكاد ان يكون من المستحيل الجزم بان محمداً كان في آخر حياته يعتقد بصدق رسالته اما في الدور الاول فاعتقاده وصدقه لا شك فيهما والادلة كثيرة من الجانبين ووضع المسئلة على هذه الكيفية هو الذى فرق بين الباحثين وانتصر كل حزب من المتطفلين لرأى رجحه تبع امياله وما يشتهى الا ان الناقد المنصف لا يجب عليه ان يرجح قولا على آخر بدون

ملاحظة القرائن التى تتبع الاثنين ولكن الناس كما وصفهم (موسيو مونور) محتاجون الى الايقان والاعتقاد وهم فى احتياجهم هذا يميلون الى من يلقى عليهم المسائل كانها حقيقة ثابتة ويمقتون من ينهاهم عن الاعتقاد بشيء او نفيه مطلقاً بغير تثبت ولا دليل ولست ممن يدعى الترفع عن هذا التقريع غير انى اقول انه بفرض صحة المذهبين وان صدق النبي فى آخر حياته وعدمه سيان فى الوضوح والدليل فلا يزال عندنا سبيل آخر للوصول الى الحقيقة أو القرب منها ألا وهو علم النفس وحركاتها وهذا العلم وان لم يبلغ بعد الدرجة التى تزيل كل شبهة علقت بالافكار لكنه مع ذلك يوصلنا الى الايقان بان من الانبياء من لا يتيسر للباحثين ان يجزموا بشيء فى امرهم كأن يؤكدوا انهم صادقون او انهم جروا فى اعمالهم على ما يخالف الواقع وهم يعلمون كما يفعل السياسيون وما من كاتب ولا باحث يستطيع ان يجزم بان الامبراطور كونستنتان الذى رفعه القسس مكانا علياً فى المعابد وأختصوه بالمواهب الالهية كان صادقا بعد انتصاره فى قنطرة (ميلفيوس) ولكن محمداً قاوم الوثنية بعزم واحد طول الحياة ولم يتردد لحظة واحدة بينها وبين عبادة الواحد الاحد كما فعل الملك الرومانى وايمانه كان حقاً ثابتاً على الدوام لذلك لم تتغير حميته ولم تفتر عزيمته فقد انتهى كما بدأ ولو انه جال بفكره ساعة من زمانه شك فى صدق رسالته لكفى بنصره الدائم مزيلا لهذه النغمة ومؤيداً له فى صحة نبوته وصدق رسالته

وفى الصدق درجات فليتبينها الباحثون وليفقهوها قبل ان يحكموا بالبدع وهم مخطئون ولقد عانى محمد (صلعم) كثيراً مع بنى قومه اذ كانوا منكرين

ولم يأخذهم على غرة منهم بعد ان صاروا مؤمنين نحن لا نصدق بما يقولون بل نرى ان قومه كانوا في استعمال أمانته من المتطرفين ولئن أعجم لهم القول حيناً في مخاطبتهم فذلك لانه يعز وجود من يحب الحق ولا تلجئه الحوادث الى الاعجام طلباً لتقريره في ذهن قوم جاحدين ان الذين ينكرون صدق محمد في آخر حياته لا يستطيعون ان ينكروا عليه انه بقي الى آخر لحظة منها نبيا رسولا شديد التمسك بمذهبه وانه فارق الدنيا مؤقتاً باداء رسالته فلقد اتفق مؤرخو العرب طراً على الحوادث التي تخللت ايامه الاخيرة وأورثونا عنهم ما كان من حركاته وسكناته بقول واحد ومعنى لا يتغيرمما يبرهن على صدق حديثهم وامانتهم في نقلهم ولولا زيغ المنشدين من النصارى وكثرة تخيلهم لما قالوا (ان محمد قد مات تنهشه الخنازير اذ وجدوه نشوان وليس عنده معين ولا نصير) تلك جريمة لا تغتفر ومما يستغرب له المطالع ان يجد حكاية هذا الموت الفاضح في تاريخ الحرب الصليبية الاولى لمؤلفة (جيبير دي نوجان) وهو معدود من المؤرخين الذين لا يميلون الى التخريف غير انه اتى بهذه الاكذوبة وزادعليها ان المسلمين كرهوا لحم الخنزير من ذلك التاريخ فلنسدل ثوب النسيان على هذه الاقاصيص المحزنة ولنقرأ كيفية وفاة النبي في كتب المؤرخين الصادقين

لما قربت المنية خارت قواه وخرج الى الحج بمكة في شهر مارس سنة ٦٣٢ ميلادية وهي حجة الوداع وخطب في الناس على منبر المسجد المقدس فقال رب أني أديت رسالتي وبلغت اماناتي (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم

نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) ثم رجع الى المدينة وأقام ببيت عائشة زوجته المصطفاة برضاء من زوجاته. ولما أحس بقرب الاجل ذكر الفقراء فانه لم يرغب طول حياته في المال بل كان كلما جمع اليه شيئا منه انفقه في الصدقات وكان اعطى عائشة يسيراً لتحفظه فلما حضره المرض امر بانفاقه على المعوزين لساعته وغاب في سنة ولما أفاق سألها ان كانت انفذت امره فاجابته كلا فامر بالنقود واشار الى العائلات المعوزات فوزع عليهم وقال (الآن استراح قلبي فاني كنت أخشى ان ألاقي ربي وانا املك هذا المال)

وكان في مرضه يخرج كل يوم ليصلي الظهر بالناس وآخر يوم خرج فيه هو الثامن من شهر يونيه سنة ٦٣٢ وكانت مشيته مضطربة فتوكأ على الفضل بن العباس وعلي بن ابي طالب وقصد منبر الخطابه الذي كان يعظ الناس عليه قبل الصلاة وحمد الله واثنى عليه ثم خطب في المسلمين بصوت رفيع سمعهُ من كان خارج المسجد فقال (ايها الذين تسمعون قولي ان كنت ضربت أحدكم على ظهره فدونه ظهري فليضربه وان كنت اسأت سمعة احد فلينتقم من سمعتي وان كنت سلبت أحداً ماله فاليه مالي يقتص منه وهو في حل من غضبي فان الغل بعيد عن قلبي) ثم نزل من المنبر وصلى بالجماعة ولما أراد الانصراف أمسك به رجل من ازاره وطلب منه ثلاثة دراهم ديناً له فاداها على الفور (قائلا لخزي الدنيا اهون من خزي الآخرة) ثم دعا لمن حارب معه في أحد وسأل الله لهم الرحمة والغفران وكان مشهد النبي بين المؤمنين في ذلك اليوم مشهد جلال ووقار والناس يلمحون على وجهه تأثير السم الذي شربه من يد يهودية خيبر وقلوبهم منفطرة من الوجد

عليه ذلك انه لما كان في واقعة خيبر قدمت اليه يهودية اسمها زينب شاة مشوية اضافت اليها سما فاخذ منه النبي قطعة واحدة بين شفتيه وأحس بانها مسمومة فالقاها . ثم لما حضرته الوفاة بعد حين كان يقول (مازالت تعاودني اكلة خيبر) وكان أبو بكر نفسه يبكي ويقول للرسول (هلاً افتدينا روحك بارواحنا) ثم اوصله الصحابة الى بيت عائشة واضطجع تعباً مهزولا وصار المرض يشتد عليه فتخلف عن الصلاة بالمسلمين وقيل له قد جاء وقت الظهر فاشار الى ابي بكر ليصلي بالناس فكان من وراء هذه الاشارة خلافة أبي بكر بعد النبي . واخبرت عائشة رضي الله عنها عن حالة الاحتضار فقالت (كانت رأس رسول الله مسندة الى صدري وبقربه قدر ماء وكان يقوم ليضع فيها يده ويمسح جبينه ويقول (رب اعني على تحمل سكرات الموت ادن مني ياجبريل رب اغفر لي واجمع بين اصدقائي في السماء ثم ثقلت رأسه ومال ثانية الى صدري)

أما مخلفاته فبيت بناه بيده وبضع نياق آلت الى بيت المال لانه عليه الصلاة والسلام قال (نحن معاشر الانبياء لانورث)

الى هنا نقصر القول عن ذات النبي فما أردنا ان نطيل فيها لالنعرف حقيقة تلك النفس المتشبعة بالدين اذ الدين يدعو الى الدين وكان من الوجوب دقة البحث عن اعتقاده (صلى الله عليه وسلم) قبل ان نتتبع دينه كيف انتشر ولا يزال ينتشر في الوجود

الفصل الثاني

﴿ الاسلام في زمن الفتح ومدة حكم العرب ﴾

استعصاء بلاد العرب على الاسلام — القديس (اوغستان)
ومعاقبة أهل البدع — انتشار الاسلام وملاينته في الشرق —
اعتناق الاسلام بمصر في زمن بني امية — الاسلام في
الاندلس — اضطهاد قرطبة — تعذيب (فلورا)
العذراء — المضطهدون في مراكش — نتائج
ملاينة الدين الاسلامي

قال القديس (بولص) يطلب اليهود معجزات ليصدقوا واليونان ادلة ليؤمنوا وأما العرب فانهم آمنوا بغير معجزات ولا أدلة اذ النبي كان يقول لجلسائه على الدوام انه آدمي مثلهم وانه مرسل اليهم وانه مجرد عن كل سلطان في المعجزات (قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم اله واحد) (قل لا املك لنفسي نفعاً ولا ضراً الا ماشاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون)

وأما البراهين فنحن نعلم مقدار بعد عقله عن التخيلات الذهنية كالامة التي بعث فيها الا اننا رأينا الاسلام في وقعة بدر سنة ٦٢٤ ميلادية وليس له من الانصار الا ثلثمائة واربعة عشر نفراً فلم يمض عليه قرن واحد

حتى اجتاز جبال (الألب) وتوسط البلاد الفرنساوية وقد اسلمت الشام والعجم ومصر وبلاد الغرب من مرا كش الى الجزائر الى تونس الى طرابلس . نعم قد سبق هذا الانتشار العظيم عناء شديد واضطراب فى العمل كثير واضطهاد للناس كبير شأن كل ديانة عامة فى مبدأ ظهورها ولكن الاسلام لم يلبث ان تغلب على اكبر العثرات فمهد الصعاب حتى صار لا يعرف حاجزاً ولا ممانعاً

وما أشبه الدين فى انتشاره بامتداد السائلات الطبيعية فهو نتيجة مؤثرين مؤثر داخلى يسمى المقاوم ومؤثر خارجى وهو المحرك والاول خفي لا يظهر اثره وان كان هو الذى يلتقط جميع الحرارة الواصلة الى الجسم فعمله الوحيد التغلب على مقاومة العناصر فاذا انحلت جاء المؤثر الخارجى فنشأ عنه مع اختلاف يسير تمدد الجسم العظيم الذى يسمى تبخراً وقد احتاج الاسلام فى الانتشار الى التغلب على قوة العوائد والتقاليد التى وجدها وهو مانع يصادف كل دين جديد الا انه كان قوياً للغاية عند العرب لتمسكهم بعاداتهم واعجابهم برسوم قبائلهم العريقة القديمة وكان من الصعب جداً ان يعتنقوا ديناً يرى اباءهم غير مطهرين ومن الموانع التى قوت العرب فى استعصائهم على الاسلام مااشتمل عليه من مبدإ قهر النفوس وتذليلها للواحد المعبود فالقول بالمساواة بين الناس طراً امامه كان ثقيلا على آذان العرب مخالفاً لتقاليدهم الاولية حتى يدينوا اليه بغير عناء ولذلك فان الاسلام سنة ٦٣٢ ميلادية ايام وفاة النبي لم يكد يبلغ حدود جزيرة العرب الا انه كان بين المسلمين الاولين رجال من العظماء اعترف بفضلهم الاب (بروغلى)

حيث قال (ان الذين آمنوا بمحمد كانوا قوما صادقين ذوى دراية وذكاء منهم ابو بكر وعمر رجلان توليا زمام مملكة فسيحة الارجاء فاحسنا سياستها وكانا ذوى ثبات وعدل وقناعة وفضل وشدة عزيمة وكانا ارفع قدراً وابعد مرمى من القياصرة والحكام الذين حاربوهما) ومن الغريب ان الدين الاسلامى لم يلق فى طريقه من المقاومات الا ماقابله بها العرب الوثنيون فانهم كما قدمنا كانوا مدفوعين الى المقاومة بسبب تمسكهم بعوائدهم وشعائرهم القديمة وحبهم لحريتهم واستقلالهم فكان جميع تلك القبائل المنثورة وهم رحل فى الوديان غيورون على اطلاقهم في الفلوات لايعرفون من الحكم الاسوق الماشية الى المرعى ومحاربة بعضهم فى كل آن وتكوين أمة واحدة منهم أكبر عقبة قامت فى وجه النبي ولولا قوة الدين الجديد لما بقيت تلك الوحدة زمناً طويلا على انها لم تدم الا وقتاً وعادت بعد ذلك الى التفرق والانقسام غير ان القبائل بعد تفرق وحدتها لاتزال متمسكة بدينها الجديد وصار الاسم العربى ذا المقام الاول بين الأسماء فى جميع أطراف المسكونة وصار كل ينتسب الى عائلة من عائلات الجزيرة خصوصاً عائلة قريش ذات المجد الباذخ والشرف الرفيع وهذا هو السبب فى اطلاق اسم العرب فى التاريخ على أمور كثيرة فقالوا عائلة كذا عربية وأمة كذا عربية وتمدن كذا عربى مع انه لاجامعة بينها وبين بلاد العرب سوى الاسلام

ولم تتوحد قبائل العرب لتصير أمة واحدة من غير اراقة الدماء بل قامت حروب داخلية اذكتها الاحقاد القديمة وجلبت على المتحاربين خسائر جلى وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) مهتماً كثيراً بفتح العرب

كلها لظهوره بينهم و كون بلاد العرب صارت مطلع شمس الاسلام حيث ترسل اشعة نورها فى جميع الاقطار وكان أشياعه يسمعونه على الدوام يكرر عليهم هذا النداء (لايكون دينان فى العرب أبداً) ولذلك نزلت فى القبائل المعاندة تلك الآيات التى تنذر بغضب الله (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير) (ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين ذلك بانهم كرهوا ما أنزل الله فاحبط أعمالهم (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) وقد نظر بعضهم الى هذه الآيات وما يماثلها فاتهموا النبي بالتعصب أفما كان يجب عليه أن يحارب بقوة السلاح المعاندين من الوثنيين ليبيد تلك الديانة الى الابد من بلاد العرب كما انها هى التى اخنت على مذهب التوحيد مذهب الخليل قبل الاسلام وان يجعل بين المؤمنين وبين عبادة الاصنام حداً فلا يرجعوا اليها (قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)

ولقد فرق جميع مفسرى القرآن على الدوام بين الوثنيين وبقية الكافرين فالمجوسى على قول خليل هو الوثنى الذى لا يعترف المسلمون بديانته كما يعترفون بدين اليهود والنصارى وليس له مقام فى دارهم وان أدى الجزية لانها غير مقبولة منه ويجب عليه أن يهاجر فى ثلاثة أيام من يوم تكليفه بذلك أو ان يعتنق الاسلام أو ان يموت على اننا نرى فى الكتاب الخامس من الزبور أمراً بالتشدد فى معاملة الوثنيين قال (اذا أدخلك ربك فى ارض

لتملكها وقد أبادا مما كثيرة من قبلك فقاتلهم حتى تفنيهم عن آخرهم ولا تعطهم عهداً ولا تاخذنك عليهم شفقة أبداً) . كذلك أمر الله اسرائيل باستئصال سكان المدائن التى اختص بها قومه ولم يأمر بالاشفاق الا على المدن البعيدة التى لا تصل عدواهم اليه ثم ان شدة اعتقاد النبي وقوة ايمانه بان القرآن أنزل اليه ليخرج الناس من الظلمات الى النور سببان يؤيدانه فى استعمال الحرب فكان مثل اشعيا يخدم ربه با بادة الوثنيين كذلك اعتناق بعض القبائل للاسلام فى مبدإ ظهوره كان اوجب عداوات شتى اشتعلت بسببها نيران الفتن فى بلاد العرب اجمعها وما كان ينبغى للنبي حباً فى السلام ان يترك الباطل يعلو على كلمة الحق المبين

كتب القديس اوغستان وعصره ليس ببعيد عنا كتابه الشهير الى الكونت (بونيفاس) يشير عليه فيه باستعمال القوة لردع اهل البدع من المسيحيين وردهم الى الديانة النصرانية (راجع ترجمة هذا الخطاب فى الملحق الثانى) وقد جاء فيه تمثيل المنشقين ببغال تعض وترفس قوما يعالجونها مما اصابها وهم ملجئون الى تعذيبها ليتمكنوا من تضميد جراحها وان الطفل الصغير لا تتيسر تربيته بغير السياط والايلام الجسمانى فالاضطهاد الذى يستعمل ضد الاشرار لردهم الى طريق الخير أكبر خير يصنع معهم نعم لا يشك احد فى ان حمل الناس على طاعة الله بالحسنى وبالتعليم اولى من الجائهم اليها بالارهاب والتعذيب الا ان الناس رجلان فمنهم من يسهل اقناعه بالمناظرة فيرجع الى الحق ومنهم الغبي المكابر ولقد دلتنا التجارب ولا تزال ترينا ان الناس من ينفع الخوف فى تعليمهم او فى استعمال ما تعلموه على الوجه

الذى ينبغي ثم أخذ الـكاتب يشرح للمكـتوب اليه ان الاضطهاد عدل وظلم فهو عدل من الاتقياء ضد الاشقياء وظلم من هؤلاء على الاولين قال (تضطهد الـكنيسة من تحب ويضطهد الاشرار من يكرهون فهى تريد جمع الشمل وهم يفرقون وهى تجرى خلف الهدى وهم للضلال يسارعون) ولقد كان يتعذر ان يلاقى الناس تساهلا وليناً من الاسلام فى مبدإ ظهوره لما فيه من المخالفة لثورة الدين فى نفس النبي واصحابه الاولين ولـكن بعد ان دانت العرب وآمنت بالقرآن واستنارت القلوب بنور الدين الحنيف برز المسلمون فى ثوب جديد امام اهل الارض قاطبة هو المسالمة وحرية الافكار فى المعاملات وتتابعت آيات القرآن تأمر بالمحاسبة بعد تلك الآيات التى كانت تنذر القبائل المارقة (لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي) (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما

هكذا كانت تعاليم النبي بعد اسلام العرب وقد اقتفى اثره فيها الخلفاء من بعده وذلك يحملنا على القول كما قال (روبنسون) ان شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين المحاسنة ومحبة انتشار دينهم وهذه المحبة التى دفعت العرب فى طريق الفتح وهو سبب لا حرج فيه فنشر القرآن جناحية خلف جيوشه المظفرة اذ اغاروا على الشام وساروا سير الصواعق الى افريقيا الشمالية من البحر الاحمر الى المحيط الاطلانطيق ولم يتركوا اثراً للعسف فى طريقهم الا ما كان لا بد منه فى كل حرب وقتال فلم يقتلوا امة ابت الاسلام ولو

قارنا بين اغارة المتبربرين وبين اغارة المسلمين التى تلتها لوجـدنا الثانية اخف ضرراً واكثر ليناً فكلما التقى المسلمون بامة خيروها بين واحـد من ثلاث الاسلام او الجزية او تحكيم الحرب حتى تضع اوزارها هكذا كانت الاوامر التى زود بها ابو بكر الصديق خالد ابن الوليد لما انفذه الى الشام وقد سرت هذه الاوامر الا فى الوثنيين لما تقدم بيانه من انهم كانوا يعاملون بغير معاملة الامم الاخرى ومما يحسن هنـا ان نقابل بين اوامر ابى بكر (رضى الله عنه) وبين تعاليم الكتاب الخامس من الزبور فيما يتعلق بحصار المدائن ومعاملة الكلدانيين قال (اذا اقتربت من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الامان فان قبلته فقد سلم كل من فيها وان ابت وبادأتك بالعدوان فشدد الحصار عليها ومتى وفقك الله للظفر بها فاحطم رأس كل ذكر فيها بحد الحسام)

ولم يلق المسلمون من نصارى آسيا وافريقيا الا مقاومة خفيفة اخلدوا بعدها الى الدين الجديد ولقد مضى زمن طويل وهم ينسبون سقوط تلك الكنائس فى حوزة الاسلام مع ما كان لها من المكانة الرفيعة قبله مثل كنائس (قرطاجنة) الى ما استعمله المسلمون معهم من العنف والتعصب وعدم المحاسنة وذهب معاصرو هذا الفتح من المؤلفين الى تفسيره بما يلائم احوال زمنهم فنسبوا سرعة تقدم الاسلام الى ما استحقه المسيحيون من غضب الله عليهم فاراد ان يعاقبهم على زيغهم واراد قوم من المتعبدين ان يؤيدوا هذه الحجة وان يحرضوا الناس على التوبة فبالغوا فى ذلك الزيغ وشددوا النكير على النصارى وصاروا يعزون بان الجيوش الاسلامية انما

هى الآلة التى اراد الله ان ينتقم منهم بواسطتها ذلك لان الفتح الاسلامى وتفرق الكنائس المسيحية فى آسيا وافريقيا حادثتان متلازمتان فلا لوم على المؤرخين فى الجمع بينهما حتى ان الفاتحين انفسهم ما كانوا يفرقون بين اعتناق الاسلام والرضوخ للقوة الظافرة ولكن الخطأ عند الجميع هو تعليقهم الثانية على الاولى مع انه لايوجد بينهما الا تفاعل من بعض الوجوه فكما ان الفتح الاسلامى حمل النصارى على ترك دينهم كذلك تفرق ذات بينهم سهل الفتح للمسلمين

انكر (آريوس) ألوهية عيسى فكان بذلك طليعة لنبي المسلمين اذ فتح الطريق الى الاسلام لان الاسلام ما كان يقول عن المسيح الا انه آخر الرسل قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) وبعد ان ظهر لم يقم أحد بطعن يذكر ضد مذهب التثليث بل جرى الناس عليه بالاجماع اثنى عشر قرناً متتالية حتى صار عاماً ولم يعد الباحثون غير المتدينين يجرأون على نبذه من بين الديانات القائلة بالتوحيد لما يلزمه من تعدد ذات الاله ولذلك كان من خوارق العادات قيام أسقف الاسكندرية آريوس فى وجه الدين المسيحى حتى ارتجت له اركان ذلك الدين واستولى اليأس على قلوب المسيحيين المخلصين وصار القديس (جيروم) يتنهد الصعداء قائلا لقد اندهش الكون من صيرورة الناس كفاراً لا يعتقدون بتجسم الاب فى الابن) ومع ان المسيحيين اتباع (نيس) تمكنوا من التغلب على هذا المذهب الجديد فقد نتج من هذا الخلاف انشقاق عظيم فى كنائس افريقيا وآسيا وظهر الاسلام يخطو خطاه الواسعة فلم ير فيه أولئك المتنافسون ديناً جديداً

بل قبلوه مذهباً مسيحياً

ولانتشار الاسلام ورضوخ الامم لسلطانه سبب آخر فى هاتين القارتين آسيا وافريقيا الشمالية هو استبداد القسطنطينية فانه كان قد بلغ منتهى العسف ووصل جور الحكام الى درجة ازهقت النفوس فلما جاء الاسلام ترامو اليه هرباً من الضرائب الفادحة واستلاب الاموال لانه كلما اسلمت عشيرة رفع عنها أثقال المغارم ورد اليها مالها المسلوب ومن لم يقبل شريعة القرآن عومل هذه المعاملة عينها بلا قيد غير اداء الجزية وكانت شيئاً يسيراً (العشر) أو جزءاً من اثنى عشر وبذلك آمنوا فى ظل لدين الجديد ولم يتعرض اليهم أحد من دعاته فى دينهم ولم يفرق بين أصلى فى المسيحية ومنشق عنها وهذه المعاملة هى التى جاء بها القرآن وجرى عليها الخلفاء الاولون فكان اليهود والمسيحيون يسمون ذميين وهم ثلاثة ذميون ومستأمنون ومحاربون فالاول منهم من سكن بلاد المسلمين ودان لسلطة الحاكم الاسلامى وأدى الجزية اليه يعبد الله على دينه ولا يكره على الاسلام ويخضع لقوانين النظام والامن العام ويرجع الى دينه فى الاحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث الا اذا اشترك معه مسلم فالدين الاسلامى ومن الخطأ الفاحش استعمال لفظة الذمى فى معنى الخسة والجبانة لأن معناها الحقيق (المؤمَّن بتشديد الميم الثانية وفتحها)

والمستأمن هو الغريب العابر السبيل وهو يعيش تحت حماية المعاهدات والقوانين الدولية العامة وأما المحارب فهو من كان فى بلاد تجاهر بالعداوة للاسلام أو لم تتعاقد مع المسلمين على مايضمن لاهلها الامان فى ديارهم فان

وجد في بلد مسلم وشهر السلاح في وجهها خيَّر بين الاسلام أو الاعدام وما عدا ذلك فهو آمن ان أدى الجزية قال علي رضي الله عنه (ما كانت الجزية الا ليتساوى دم الذمي بدم المسلم وماله بماله) وكان من وراء هذه المسالمة ولين المعاملة تقدم الاسلام حثيثاً وسهولة استعلاء فاتحيه لما سبقه من ظلم أكاسرة المملكة الشرقية التي بغضها الناس وسئموا الحياة منها

هذا واذا انتقلنا من الفتح الاول للاسلام الى استقرار حكومته استقراراً منظما رأيناه اكثر محاسنة وانعم ماسا بين مسيحي الشرق على الاطلاق فما عارض العرب أبداً شعائر الدين المسيحي بل بقيت رومة نفسها حرة في المراسلات مع الاساقفة الذين مازالوا يرعون الأمة الخالية وفي سنة ١٠٥٣ ميلادية كتب البابا ليون التاسع الى مسيحي افريقيا يوصيهم باعتبار أسقف (قرطاجنة) مطراناً عاما بينهم وكان الوئام مستحكما بين المسلمين والمسيحيين حتى ان (غريغوريوس) السابع كتب الى المسيحيين يلومهم على المحاكمة مع أسقفهم امام المسلمين وكان ذلك في ٥ سبتمبر سنة ١٠٧٣ ومع هذه المسألة العظيمة من جانب المنتصر الى المغلوب ضعفت الديانة النصرانية جداً ثم زالت بالمرة من شمال افريقيا . على ان الاسلام لم يكن له عمال مخصوصون يقومون بالدعوة اليه وتعليم مباديه كما في الديانة المسيحية ولو انه كان له أناس قوامون لسهل علينا اشكال معرفة السبب في تقدمه القريب فانا شاهدنا الملك شارلمان يستصحب معه على الدوام في حروبه ركباً من القسس والرهبان ليباشروا فتح الضمائر والقلوب بعد أن يكون هو قد باشر فتح المدائن والاقاليم بجيوشه التي كان يصلي بها الامم حربا تجعل

الولدان شيبا ولكننا لا نعلم الاسلام (مجمعاً دينياً) ولا رسلا وأحباراً وآراء الجيوش ولا رهبنة بعد الفتح فلم يكره احد عليه بالسيف ولا باللسان بل دخل القلوب عن شوق واختيار وكان نتيجة ما أودع في القرآن من مواهب التأثير والاخذ بالالباب نعم قد اعتنق الاسلام قوم مشوا وراء منافعهم ولكنهم قليلون بجانب من اسلم عن اعتقاد صادق وميل صحيح وكان ذلك من اسهل الامور لبساطة الدين وكفاية النطق بكلمة التوحيد ليصير قائلها من المسلمين . ومع ذلك فلم نر بعد استقرار الحكومة الاسلامية على محور النظام عشائر من المسيحين تركوا دينهم جملة واحدة بل انه صار من اللازم ان يثبت الاسلام لمن اراده على يد القاضي ويحرر بذلك محضر يذكر فيه ان المسيحى اعتنق الاسلام عن اعتقاد تام غير خائف ولا مكره اذ لا يجوز ان يكره احد على تغيير دينة (راجع المحضر المذكور في الملحق الثالث) [1]

وقد كثر دخول المسيحيين فى الدين الاسلامى ايام حكم الامويين حتى ان الخلفاء لم ينظروا اليه بعين الرضا لما كان ينشأ عنه من الضرر ببيت المال فقد نزلت ضرائب مصر مدة خلافة معاوية الى النصف عما كانت عليه فى خلافة عثمان بسبب دخول عدد عديد من الاقباط فى الاسلام ومن أجل ذلك ضيق الخلفاء باب الدخول فى الدين الجديد فلم يعفو الراغبين فيه من اداء الجزية يدلنا عليه ما كتبه حيان الى عمر الثانى وهو عمر بن عبد العزيز اتقى الخلفاء الامويين حيث قال له فى

(١) هذا ليس بواجب شرعا ولعل المؤلف اخذ ما يقول من سريان العادة به فى هذه الازمان

خطابه (اذا دام الحال فى مصر على ماهو فيه الآن أصبح مسيحيو هذه البلاد كلهم مسلمين وخسرت الخلافة حينئذ ماتجبيه منهم من الاموال)

فلما قرأ الخليفة هذا الكتاب انفذ لساعته الى حيان رسولا وقال له (اذا لقيت حيانا فاضربه ثلاثين سوطاً على أم رأسه عقابا له على كتابه وقل له ان يرفع الجزية عن كل رجل يعتنق الاسلام فانى ارى سعادتى فى ان يصبح المسيحيون أجمعون من المسلمين لان الله ارسل نبيه ليبلغ رسالته لا ليجمع الضرائب والاموال) وليس فى خوف المسلمين على نفاد النقود من بيت المال مايوجب استغرابنا لان الضرائب فى الجزائر تصيب مسلميها فهى اكثر جداً من التى تطلب من المسيحيين فلو تنصر مسلمو الجزائر ومنحوا جميع الامتيازات المخولة للمسيحيين لاصبحنا فى حيرة شديدة من قلة المال

ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين فى بلاد الاندلس حتى صاروا فى حالة أهنأ من التى كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم (فيزيجو) ويقول (دوزى) ان هذا الفتح لم يكن مضراً بالاندلس وما حصل من الاضطراب والهرج بعده لم يلبث ان زال باستقرار الحكومة المطلقة الاسلامية فى تلك البلاد وقد ابقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء وكثير منهم تولى قيادة الجيوش مثل (سيد) وتولد عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الاندلسية الى المسلمين وحصل بينهم زواج كثير وكم من اندلسى بقى على دينه ولكن

اعجبته طلاوة التمدن العربي فتعلم اللغة وآدابها وصار القسس يلومونهم على ترك الحان الكنيسة والتعلق باشعار الظافرين وكانت حرية الاديان بالغة منتهاها . لذلك لما اضطهدت اوروبا الموسويين لجأوا الى خلفاء الاندلس في (قرطبة) لكن لما دخل الملك (كارلوس) في سراقسبطه امر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين ونحن نعلم ان المسيحيين ايام الحروب الصليبية مادخلوا بلادا الا واعملوا السيف في يهودها ومسلميها وذلك يؤيد ان اليهود انما وجدوا مجيراً وملجأ في الاسلام فان كانت لهم باقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم لا الى ما يوجد بين الاثنين من الجامعة في الاصل والجنس واللغة والدين كما ادعاه (افيديكور شايكين)

ولم يطلب المسلمون من مسيحيي الاندلس الا ما فرضوه على غيرهم وهو الجزية ويحسن بي ان اذكر هنا نادرة رواها أحد مؤرخي العرب لكونها تدلنا على ارآئهم في الجزية وما كان بين المسلمين والنصارى من العلائق والروابط (كان لفقيه من فقهاء قرطبة جار مسيحي يسلم عليه كلما لاقاه في طريقه بقوله اطال الله عمرك فسمعه ذات يوم بعض المتشددين في التمسك بالقرآن ولاموه على دعائه لجاره النصراني بمثل هذا الدعاء فلم يحفل الفقيه بملامهم واجابهم بسكينة انني بقولي الى نصراني اطال الله بقاك اريد ان يفسح له في الاجل ليؤدي الجزية زمنا طويلا والظاهر ان الفقيه كان مصافيا للمسيحي وانه اراد التخلص من عتب اللائمين فاسكتهم بهذا الجواب . وقصص العرب والاندلسيين محشوة بمثل هذه النادرة مما

يدل علي حصول المودة الا كيدة بين الفريقين . فما هو مبالغ فيه اذن تعظيم الضغينة التى كانت بين الامتين اما رأينا الخلفاء انفسهم فى الشام والاندلس يتخذون لهم نصحاء من المسيحيين ويرفعونهم الى اعلي الدرجات وكان المسلمون يشكون من ذلك علنا ويرددون هذه الحكمة البديهية التى نزلت علي النبي (صلى الله عليه وسلم) ياايها الذين امنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدى القوم الظالمين)

وذهب العلماء الى تحريم مصافاة المسيحيين (١) وقالوا بعدم جواز ولايتهم فى المناصب الا ان اوامر الدين لا تقوى على الضرورة فتولى المسيحيين مناصب فى الاسلام كان ضربة لازب عقب الفتح لعدم تعود العرب على سياسة الامم فكانت ادارة ممالكهم من أصعب الامور لديهم ووجب لذلك استخدام المسيحيين الا ان أولئك الموظفين كانوا يشوهون بوجودهم فى المناصب وحدة الاسلام وقد سماهم المحدثون من العرب (قذى حقيقياً فى أعين الاسلام) وكان بغض المسلمين اليهم مسبباً فى الغالب من جورهم فى الاحكام لا من مخالفتهم فى الدين

وليس من غرضى ان آتى علي تاريخ المسيحيين فى الممالك الاسلامية أيام القرون الوسطى ولكن من البديهي انه لا بد من ان يكون حصل بين الفريقين تعد واعتساف كما يحصل المد والجزر فى البحر الا ان رأى المؤرخ

---

(١) الآية لا تدل الا على منع الولاية وليس فى الشريعة ما يحرم المصافاة كما سبق له بيانه .

لا يأتيه من جمع الحوادث مجردة عن ظروفها بل من نظره في أسباب تلك الحوادث والوقوف على كيفية ظهورها وأنا قد قرأت التاريخ وكان رأيي بعد ذلك ان معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع في المعاشرة عن الغلظة وعلى حسن مسايرة ولطف مجاملة وهو احساس لم يشاهد في غير المسلمين اذ ذاك خصوصاً وان الشفقة والحنان كانا عنوان الضعف عند الاوروباويين وهذه حقيقة لا أرى وجها للطعن فيها على وجه العموم . على انه لا يسعني ان أترك ذكر حادث عظيم الشأن ذلك ان الكنيسة الاندلسية تخيلت سنة ٨٥١ انها على شفا جرف الاضطهاد من المسلمين فبينما عامة المسيحيين في قرطبة يقيمون شعائر دينهم مطمئنين ولا يشكون من حكومة العرب كان القليل منهم يتميز من الغيظ ضدهم بما هيجه القسس والرهبان في صدورهم من الغل وما ملأوا به ضمائرهم من الحقد والبغضاء وقد امتاز من بينهم (ايلوغوا) وكان قساً في قرطبة في عنفوان شبيبته حتى انه احتاج في كسر ثورة نفسه الى قهرها بالصوم والسهر ووهب نفسه للموت حباً في المسيح فانساه هذا الميل كل شهوة دنيوية وكان يجتمع دائما بمبغضي الاسلام ويخطب فيهم حتى أهاج ضمائرهم لقوة بيانه وهاموا جميعا يطلبون الموت فداء لدينهم

الاندلسي حاد التخيل سهل الاعتقاد بالاوهام وبينما القاضي في مجلسه بمدينة قرطبة اذ دخل عليه راهب يقال له اسحاق وكان كاتباً لاحد أمراء العرب وعلى وجهه سمات التهييج الذهني وعيناه حائرتان فلما صار بين يديه قال حضرت لاعتنق الاسلام فامره القاضي أن ينطق بالشهادتين فاندفع يسب النبي والدين سباً شنيعا فظنه القاضي سكران أو مختل الشعور وتردد

في الحكم باعدامه الا ان اسحاق لم يرجع من أول مرة بل استمر على شتائمه حتى اضطر القاضى أن يحكم عليه بالموت على مابه من الحلم طوعا لاشارة الشرع اذ يقضى بالاعدام على من يسب الرسول وأعدم اسحاق فى ٥ يونيه سنة ٨٥١ وهو يعترف بالمسيح ويسب محمداً ومن ذلك الحين انفتح الباب أمام كل شخص يظن نفسه معذبا وأراد كل واحد أن يذهب الى المحكمة ليسب محمداً ويموت فتقاطروا اليها أفواجا أفواجا حتى تعب الحجاب من ردهم وكان القاضى يصم الاذن كى لا يحكم عليهم بالاعدام وعقلاء المسلمين مشفقون على هؤلاء المساكين آسفون على ان دينهم يأمرهم باعدامهم ويظنونهم من المجانين وقد بلغ عدد الذين حكم عليهم بالقتل أحد عشر فى شهرين واتخذ (ايلوغو) ذلك دليلا على انتصاره لانه هو الذى أوجد خيال الاضطهاد في الاذهان واستحق بذلك ان يخلد ذكره فى الكنائس ومع هذا كان عقلاء المسيحيين يرون أولئك المتعصبين قوماً أرادوا الانتحار ويجاهرون بالتنديد على أعمالهم وكان (ايلوغو) وصاحبه (القارو) يرمونهم بالخيانة لعدم اقدامهم على سب النبي ودينه ثم عظم الهياج فى كنائس الاندلس واستولى القلق على حاشية الخليفة فامر الامير عبد الرحمن الثانى بجمع رؤساء القسس وطلب منهم الفتوى فيما هو حاصل من المسيحيين فلم يتعرضوا للماضى وقالوا بالمنع فى المستقبل وتقرر أن لا يحضر مسيحى امام القاضى الا اذا دعى اليه فانقادوا آسفين ولكن ثورة الخواطر استمرت فى الكنائس الى سنة ٨٥٩ وانتهى هذا الدور الذى سماه (ايلوغو) زمن الاضطهاد فى قرطبة وتبعه فى ذلك غيره من المؤرخين ومن تخلى عن الاغراض لا يرى فى ذلك الا ان

قوماً خاطروا بانفسهم فذهبت ضحية الاوهام ولكنه لم يحصل من المسلمين اضطهاد مطلقاً . ودليلنا على ذلك كتاب (ايلوغو) نفسه وكتب من جاء من بعده فانها كلها تنطق بان المسلمين لم يبدأوا بالشر بل ثورة المسيحيين وتعديهم هما اللذان كانا السبب فيما أصابهم ومن أراد ان يطالع تلك الكتب فجزاؤه من تلاوتها ان يقف على حكاية احدى العذارى التي كانت تسمى (فلورا)

ولدت فلورا من زوجين مختلفين ديناً وجنساً وتيتمت صغيرة فربتها أمها على الدين المسيحي وكان لها أخ شديد الاسلام فشكاها الى القاضي وعذرت تعذيراً شديداً بالسياط حتى تقطعت بشرة رأسها من الخلف وكانت ذات حسن وجمال (باهرين) كما ان أبويها كانا من جنسين عظيمين واتفق ان جراحها زادت في حسنها واهتم بها اشياع (ايلوغو) وصاروا يذهبون لمشاهدتها في المحكمة ويعجبون بشجاعتها في تمسكها بدينها وقد ذهب « ايلوغو » نفسه لزيارتها فكشفت له عن جراح رأسها وشاهدها بغير تلك الشعور التي كانت تزينها فتأثر التقي الصالح (ايلوغو) لمرآها واشتغل قلبه بحبها غير انه حب طاهر كما كانت البنت بكراً ثم وضع يده على الجروح وود لو تمكن من شفائها بين شفتيه ولكنه لم يتمكن فانصرف عنها مكتئباً فكوراً وكانت فلورا تعيش في عزلة عن نظر المسلمين ولا تخرج من مخبئها الا الى الكنيسة وهنالك تعرفت باحدى العذارى واسمها مريم وكان لها أخ حكم عليه بالموت وهي تريد أن تفعل كما فعل وكانت هذه المعرفة سبباً في ان كل واحدة منهما اهاجت ضمير اختها حتى وصلتا الى درجة احبتا فيها الموت فذهبتا مسرورتين الى المحكمة لتشتما محمداً امام

القاضي الا ان القاضي أشفق عليها لشبابها وجمالها واجل اعدامها ثم أمر لها بالسجن . ولما كان الثبات من اصعب الفضائل احتمالا سيما على الطباع الشديدة التأثر ومضى على البنتين اشهر طوال وهما فى السجن تهددان بالفحش والفجور ضعفت منهما العزائم بعد أن طلبتا الموت بقلب ثابت ولكن (ايلوغو) ما كان لينسى تلك التى القت فى قلبه شعوراً يقرب من العشق والهيام يوم ان كشفت له عن رأسها واتفق انه سجن أيضاً لمخالفته ماقررة القسس لدى الخليفة فسهل عليه أن يراها وكان لذلك أثر شديد فى قلبه لكن الدين كان له جماحا شديداً وأخذ يشجع البنت على الثبات والتعلق باهداب المسيح حتى أعدها ثانية الى تحمل الآلام . ألا ان قلبه مع ما هو عليه من التأثر بالدين كان يشعر بامر دنيوى واحساس غريب ذلك ان (ايلوغو) كان يحزن كثيراً لمفارقة فلورا ولكنه ضاعف فى حرمان نفسه بالصوم والجوع واراد الله ان لا يطيل عليه هذا العذاب ونفذ الموت فى البنتين يوم ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥٣ واطلق من بعدهما صراح (ايلوغو) فعين سقفاً فى (توليد) ومات مقضياً عليه فى ١١ مارث سنة ٨٥٩

ولم تنته هذه الثورة من اسبانيا الا فى آخر القرن التاسع ومع ذلك حصلت ثورة دينية تشابه ماتقدم بعد ثلاثة اجيال فى (اشبيليا) ذلك ان القديس (فرانسوى داسيز) كان ارسل بعض اخوة من أشياعه لنشر الدين المسيحي فى بلاد المغرب وكان أول عمل أتاه اولئك المرسلون ان دخلوا جامعاً فى اشبيليا والمسلمون يصلون وجعلوا ينشرون الانجيل ويعظون الناس بالدين المسيحى فطردوا ولكنهم ذهبوا الى سراى الملك وجعلوا

يطعنون على القرآن فحكم عليهم بالسجن فى منارة فاستملوها وصاروا يدعون الناس الى عبادة الدين المسيحى فلم ير السلطان بداً من نفيهم فارسلهم الى مراكش فلم يزدهم ذلك الا تشدداً فيما كانوا يفعلون ولم تنفع فيهم شفاعة دون بيترو مع علو مكانته عند الامير المراكشى فقتلوا فى ١٦ يناير سنة ١٢٢٠

ولقد أطلنا القول فى مسالمة المسلمين عند انتشار دينهم فى الغرب لان الضد ثابت فى أذهان المسيحيين ولا يزال مستحكما من نفوسهم الى يومنا هذا ما اظهره المؤرخون ومن طافوا بلاد الشرق من مخالفته للواقع قال ميشو فى تاريخ الحروب الصليبية لما استولى عمر على مدينة اورشليم لم يفعل بالمسيحيين ضرراً مطلقاً ولكن لما استولى المسيحيون على تلك المدينة قتلوا المسلمين ولم يشفقوا واحرقوا اليهود حرقاً وقال الحبر ميشون (مما يؤسف عليه جداً بالنسبة الى المسيحيين أن تأتيهم المسالمة وحسن المعاملة من المسلمين مع ان المسالمة هى أكبر الخيرات بين بعض الامم وبعضها) وقد انتشر الاسلام شرقى بلاد العرب فى جميع القارة الاسيوية بين القرن الثانى عشر والرابع عشر ولم ينشأ عنه عسف ولا حروب حتى ان حكام المسلمين انفسهم احترموا مدينة (بيناريس) لاعتبارها عند الهنديين مدينة مقدسة مع ان اهلها كانوا من البراهمة تقريباً . وبالجملة فان الاسلام مادخل بلداً الا وصار ذا المقام الاول بين الديانات المسيحية من غير ان يتعرض لمحوها

وعلى هذا يتحقق ان الدين الاسلامى لم ينتشر بالعنف والقوة بل الاقرب للصواب ان يقال ان كثرة مسالمة المسلمين ولين جانبهم كانا سبباً فى سقوط المملكه العربية ولقد يعجب المؤرخون من سرعة انتشار

الاسلام حتى بلغ نهر (اللوار) فى فرنسا ويتساءلون ما الذى كان يصير اليه حال أوروبا اذا لم يقف (كارلوس مارتل) فى وجه المسلمين فى سهول (بواتييه) ونحن نرى ان هذا السؤال موضوع وضعاً مقلوباً والاولى ان يقال ماذا كان يصير اليه حال أوروبا المسيحية او كان المسلمون متعصبين لان انكسارهم فى بواتييه ليس سبباً كبيرا يكفى لان يعوق الاسلام عن الانتشار كما اصاب في الاشارة اليه موسيو (مرسييه) وخسارة مرة فى الحرب لاتنتج عادة مثل هذه النتيجة الكبرى فمادة الحرب ان تكون سجالا وكم من كسرة شفعت بنصر عظيم وقد علل موسيو (مرسييه) انسحاب العرب نهائيا من أوروبا بعد تلك الحرب بالثورة التى قامت بين سكان المغرب لانها منعت عن المسلمين المدد الذى كان يأتيهم من تلك الاقطار وكانت العمدة في حروبهم على عساكرها وهو سبب قوى فى الواقع لكننا لا ننسى ان نضيف اليه تطرف المسلمين فى المحاسنة فانه سهل العصيان ومهد لبعض عائلات المغرب المستقلة طريق الخروج عن الجامعة فى بلاد الاندلس وبلاد المغرب وانتهى الامر مع تلك المحاسنة الى انحلال عناصر المملكة العربية ومن المظنون ان المسلمين لو عاملوا الاندلسيين مثل مافعل المسيحيون بالامم الساكسونية و(الوانديه) لاخلدت الى الاسلام واستقرت عليه لانها مع تمتعها بحريه دينها المسيحى كانت كثيرة الانشقاق والاحزاب

ومالنا ولهذه الظنون والتخمينات وأمامنا أمر واحد ينبغى الوقوف عنده وهو ان ديانة القرآن تمكنت من قلوب جميع الامم اليهوديه والمسيحية

والوثنيه فى افريقيا الشماليه وفى قسم عظيم من اسيا حتى انه وجد فى بلاد الاندلس من المسيحيين المتنورين من تركوا دينهم حبا فى الاسلام كل هذا بغير اكراه الا ما كان من لوازم الحروب وسيادة حكومة الفاتحين ومن دون ان يكون للاسلام دعاة وقوام مخصوصون وهو مما يقنعنا بان في الاسلام جاذبية وقوة انتشار سنبحث فيما بعد عن سببها الحقيق لانه لا يزال ينتشر حتى الآن . وقبل ان نبحث عن تلك الاسباب ننبه القارئ الى ان لا يعد من جملتها كما ذهب البعض اليه ان الدين الاسلامي ينتشر لكونه دينا ماديا اكثر مما هو دين أدبي فهو يبيح تعدد الزوجات ويبشر أصحابه بالتنعم في اللذائذ الشهوية في جنات بالغ الوصاف في نعوتها . وهذا هو الذى اتخذه أعداء هذا الدين مطعنا عليه زمنا طويلا كذلك سنأتي بشيء فى القضاء والقدر لان منهم من رآه سببا مهما لانتشار الاسلام وعلة الشجاعة التى امتاز بها المسلم فجعلته لا يعبأ بالموت فى مواقف الحروب

الفصل الثالث

﴿ تعدد الزوجات ﴾

تعدد الزوجات قبل الاسلام ـ تعدد الزوجات في القرآن ـ الحشمة عند المسلمين

يرى الناس في أكثر الازمان الوسطى ان أكبر عمل أتى به النبي هو اباحة تعدد لزوجات لانه توصل بذلك الى استجلاب الرجال وتطرف (بيرون) فقال والنساء لانه وعدهم بتعدد الازواج واعتمد القصاصون على هذه الروايات الكاذبة فوصفوا الاسلام بانه (دين الجاموس والجمال وجميع الحيوانات) وقال (رونان) في كتابه ابن رشد انه (دين الخنازير او القوم المنهمكين في الشهوات) وتعدد الزوجات يجرح اخلاقنا المتمدنة وعوائدنا الدينية على الخصوص فلا نكاد نفقه في شريعة موسى وهي ايضاً شريعة الهية كدين المسيح . قال الاب بروغلي انها ديانة يصعب ادراك مرادها وان الله حللها في ظروف مخصوصة يستحيل علينا معرفتها وكأني به وبامثاله يخشون على الدين المسيحي من مجاورة ديانتين منزلتين مثله وفيهما آداب تغاير ماجاء به ولعمري لست أرى وجها يمنعنا من ان نعتقد في الشارع الالهي من الحكمة مانعتقده في الشارع الوضعي فشرائع البشر تحتاط في نصوصها وتلاحظ الزمان والمكان في تقرير أحكامها وليس من داع يلجئنا الى أن

يحرم على الشارع الالهى مثل هذا الاحتياط . وذلك هو رأى أحد عمد المتكلمين موسيو (دولست) حيث يقول ان أول شريعة أدبية انزلها الله على الناس كانت موافقة لاحوالهم ملائمة لزمانهم وما كانوا عليه من درجة الآداب . وفى آداب الساميين نقص يوجد مع أصل الخلقة لا يمكن جبره مدى الايام وهو كثرة شهوتهم وذلك عيب أدبى لامحالة الا انه برهان على قوة الجسم وسلامة الجنس فالذكر من الشرقيين أكثر قوة ونشاطا من الغربى . ولذلك قال بعض المشتغلين بعلم طبائع الامم ان تعدد الزوجات أمر من ضروريات الامم الشرقية لما فيهم من القوة العظيمة ومن الغرائب الالهية التى تحار فى ادراكها الافهام ان الغربى مع ميله الى اعتقاد تعدد الالهة كان على الدوام يأبى الزواج باكثر من امرأة واحدة والشرقى الذى لا يعبد غير إله واحد يقول بتعدد الزوجات . فآلهة كثيرون وزوجة واحدة صيغة تليق عادة بالغربى واله واحد وزوجات متعددات صيغة تجمل بالشرقيين

ثم انه ليصعب جداً على الغربيين أن يقدروا شريعة القرآن فى تعدد الزواج حق قدرها لما بينهم وبين الشرقيين من الاختلاف الكلي فى الجنس والدين والتمدن ولذلك فمن الامور التى تهم معرفتها ماأهمله الباحثون دائما وهو ان تعدد الزوجات عادة قديمة فى العرب قبل الاسلام فكثرة النساء اقدم من وجود الجوامع ومن الخطأ المطلق قول الاب (بروغلي) ان كثرة النساء وجدت مع الاسلام اذ من المحقق ان قبائل العرب الذين اسلموا فى مبدأ الامر كانت على هذا المذهب كما عليه الآن الامم السوداء التى تميل بكلياتها فى هذه الايام الى الاسلام وكان هذا

المذهب في تلك القبائل والسود اوسع مما جاء به القرآن فهو لا يبيح اكثر من اربع بالكتاب ولذلك يقول اولئك القوم عن النبي انه مصلح شديد المعاملة ولا شك في ان ميله اولا كان الى الاقتصار على زوجة واحدة كما جرى على ذلك في اول حياته ولكن كان من الصعب ان يلزم بني قريش بذلك وقد كان من بينهم مثل الحارث وغيلان لكل عشر نساء اعتنقن الاسلام مع زوجهن فلو امرهم بالاقتصار على زوجة واحدة لشق الامر جداً عليهم وصعب احتماله وربما ادى ذلك الى تزعزع عقيدتهم في الدين الجديد لهذا أمرهم (صلى الله عليه وسلم) ان اختاروا ما بين ازواجكم اربعا تفضلونهن على البقية وطلقوا ما عداهن ولا يعجبن القارئ ان لم اذكر شيئاً عن تعدد زوجات النبي فقد ذكرت طرفا منه في آخر الفصل الاول وسأعود اليه فيما بعد . ويؤخذ ميل الدين الاسلامي الى تفضيل زوجة واحدة من الآية الثالثة من السورة الرابعة التي تحدد عدد مايباح من الزوجات (وأن خفتم الا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة او ماملكت ايمانكم ذلك ادنى ان لا تعولوا) ومعنى القسم الثاني من هذه الآية على مارواه العلماء هو ان الرجل اذا خاف ان لا يكون عدلا بين زوجاته وخشي تفضيل احداهن عليهن ولم يكن في حالة تسمح له ان يوفي كلا حقها وجب عليه ان لا يتزوج باكثر من واحدة وذهب بعض العلماء الى ان المسلم ليس حراً في الحكم على مقدرته وجواز تعدد زوجاته بل القاضي هو الذي ينظر في ذلك ويقضي بما يظهر له فان رأى عدم العدل

فى الطالب حكم بالاقتصار على زوجة واحدة وأيدوا قولهم بالقصة الآتية كان الخليفة العباسى ابو جعفر المنصور يحب زوجته حباً مفرطاً ولذلك لم تمل نفسه الى التزوج بغيرها معها ولكنه بعد سنين قضاها فى السعادة والهناء جنح الى طلاوة الجديد واراد ان يتخذ زوجة ثانية ورأت زوجته انه سيكون لها ضرة وربما ساءت معاملتها فانكرت عليه ما ظهرت اباحته فى القرآن وقالت بانه لا يجوز له ان يتزوج باكثر من واحدة فاستدعى الخليفة ابا حنيفة وكان من الائمة الاعلام (لعل المؤلف يريد غير الامام المجتهد ابا حنيفة) وسأله كم من النساء أيحق للرجل فى الزواج فاجاب من فوره اربع فالتفت الخليفة الى زوجته وكانت تسمع من وراء حجاب وقال لها بصوت رفيع ها قد سمعت ماقال الامام فلما سمع ابو حنيفة ذلك منه استدرك وقال الا انه لا يجوز لأبي جعفر ان يتزوج باكثر من واحد فقال ولماذا قال الامام لانك لما التفت الى زوجتك وكلمها رأيت من صوتك ما علمت منه انك لن تعدل معها ولهذا احكم الآن بان تقتصر على معاشرتها) . ولم اقف بعد ذلك ان كان الخليفة اطاع حكم الامام وحالة ابي جعفر هى حالة كل مسلم يميل الى الاكثار من الزوجات اذ الواقع عدم المقدرة على العدل بينهن ولذلك فمن النادر ان تعرض هذه المسئلة على قضاة المسلمين ولكن ليس الحال كذلك بالنظر الى ميسرة الزوج وقدرته ان ينفق على اكثر من زوجة واحدة فمن اسباب عدم الاكثار من الزوجات خوف الرجل من العجز عن القيام بالنفقة بدون توسط القاضى فتعدد الزوجات فى الشرق محدود من التكاثر وهو عزيز النوال للفقراء ولا يتمتع به الا

الاغنياء حتى كأن تعدد الزوجات فى الشرق عند الاغنياء امر توجبه عليهم حيثياتهم بين الامة كما كان ذلك حاصلا عند قدماء الجرمانيين (راجع الملحق الخامس) ولما كان التفاوت في الدرجات امراً مقبولا عند المسلمين مع كمال الترضي وحسن الاعتقاد ترى الفقراء منهم يقفون عند نواهي القرآن في تعدد الزوجات كما يحترمونها فى غيرها ولا يحسدون الاغنياء على زوجاتهم كما انهم لا يحسدونهم على بقية ما اختصهم الله به من المميزات وهم من جهة ثانية يعلمون جيداً ما يلحق بذى الزوجات من المتاعب والاوصاب وان نعيم العيش الوسط لذى امرأة واحدة ومع ذلك قد اخطأ موسيو (كاروز) حيث ذهب الى ان تعدد الزوجات يغتفر للاغنياء ويحرم على غيرهم بل الذى يفهمه المسلمون فى القرآن عند الزواج هو ما كان يقوله القديس بولس (ما كل مباح ينبغى) والمسلمون لا يقدمون كثيراً على استعمال ما اباحه شرعهم الدينى من تعدد الزوجات خلافاً لما يتوهمه غيرهم لانهم يخشون ضيق العيش وفقدان الصحة فكثيرا ما تشكو النساء أزواجهن على هجرهن ثم المنازعات في كل يوم مما يجعل البيت جحيما. وللكتاب من العرب فى هذا المعنى كلام يدل على عدم الميل لتعدد الزوجات كما نقلناه عن بعضهم فى غير هذا الكتاب حيث قال (ايها الراكب على فرسين احذر من السقوط وكفاك من حب زوجتين وكفاك واحدة ان رمت السلامة) وقد يلاحظ ان القانون الذى لا يسوى بين الغنى والفقير فى الزواج يخالف عاداتنا فى هذه الايام ولكن من عرف طبائع المسلمين علم ان ذلك القانون لا يحدث بينهم ما يظهر لنا من نتائجه لو كان عندنا فقراء المسلمين مترضون عن حالتهم قانعون بما قسم الله لهم من

العيش جرياً على حكم الضرورة عن طيب نفس خلافا لما يتوهمه موسيو (دوبروجلي) وانما القرآن يوصى المعدم بالانتظار فلا يتزوج غير قادر عليه (انظر الملحق السادس) ومع ذلك فالمعدم عن الزواج نادر والعامة يتزوجون في الثامنة عشرة غالباً وأهل الشرق لا يعرفون العزوبية وهي المصيبة التي جلبها التمدن على الغربيين وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) في محادثته مع صحابته يحب أن يسمعهم كثيرا قوله . لا رهبانية في الاسلام . ثم قال لهم يوما . نفس المتزوج احب الى الله من صلاة ستين اعزب .

ويرى القارئ مما تقدم ان الناس بالغوا كثيراً في مضار تعدد الزوجات عند المسلمين ان لم نقل ان ما نسبوه اليه من ذلك غير صحيح فما تعدد الزوجات هو الذي ولد في الشرق تلك الرذائل الفاضحة التي يشير اليها الاب . بروجلي . بل المعقول انه من شأنه تلطيفها على انني لست ادري ان كانت تلك الرذائل اكثر منها في الغرب بل تلك وصمة الصقت بالاسلام بواسطة السواح الذين يرون أمرا في فرد فيجعلونه عاما من غير تثبت فيه ولولا هذا التعميم السطحي لما وجدوا شيئاً يملأون به مؤلفاتهم والواقع ان الرذائل الفاضحة موجودة في كل أمة ولقد يقع منها في باريس ولوندره وبرلين أكثر مما يحدث في الشرق باجمعه لان النبي صلى الله عليه وسلم بالغ في تحريمها ولم يعدها من الذنوب الخفيفة كما فهم بعضهم من آية (واللذان يأتيانها منكم فاذوهما فان تابا وأصلحا فاعرضوا عنهما ان الله كان توابا رحيما) لان ذلك خروج بالآية عن معناها وشطط في تفسيرها وليست هذه الآية هي الوحيدة التي جاءت في القرآن بل كثير غيرها كما في سورة

الاعراف قال تعالى (ولوطاً اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون . وما كان جواب قومه الا ان قالوا أخرجوهم من قريتكم انهم أناس يتطهرون) . هذا والشرع الاسلامى سواء كان أخذاً عن القرآن او السنة من أشد الشرائع صرامة فى معاقبة هذا الفعل ففيه يقتل البالغان ان اتيا هذا الفعل معاً فان فسق بالغ بصبي يقتل الاول ويؤدب الثانى فان فعله صغيران جلد كل منهما مائة جلدة واما مايتعوده المراهقون من الامر القبيح وكذلك فساد الاخلاق فما لاوجود له فى الشرق الا بطريق الاستثناء لسهولة الزواج

ومن الخطاء الفاضح والغلو الفادح قولهم ان عقد الزواج عند المسلمين عبارة عن عقد تباع فيه المرأة فتصير شيئاً مملوكا لزوجها لان ذلك العقد يخول للمرأة حقوقا أدبية وحقوقا مادية من شأنها اعلاء منزلتها فى الهيئة الاجتماعية فلها ان تشترط على زوجها عدم التزوج بغيرها وعدم التسرى وان لايغيب أياماً كثيرة عن بيته بدون اذنها وان لا يؤذيها ولا يسبها وأن لايكلفها باعمال البيت الشاقة وهكذا فان لم يف بهذه الشروط جاز للمرأة ان تطلب الطلاق فان لم توده لنفسها جاز لها ان تطلب منه على يد القاضى ان يطلق ضرتها أو ان يعتق الجارية كى يبطل حق التسرى بها (١)

ولم يقتصر القرآن فى التضييق على تعدد الزوجات على عددهن بل حرم ماكان معروفاً عند العرب قبله من الزواج لزمن محدود وفى ذلك

(١) فى هذا نظر

شبه تحريم للطلاق لكونه لا يتأتى الا بشروط مخصوصة

ومع هذا كله فان تعدد الزوجات أوجب عدم اعظام الديانة الاسلامية حتى ان المتنورين من المسلمين أنفسهم شاعرون بهذا ولو كان لهم شيخ ومؤتمر ديني (أريد سلطة قائمة على الدين لتوفق بين نصوصه وحاجات الزمان) لاصبحنا في شك من بقاء اباحة تعدد الزوجات قال موسيو (ريفيل) على اننا لورجعنا الى زمن النبي (صلعم) ومكان ظهوره لما وجدنا عملا يفيد النساء أكثر مما أتاه عليه السلام فهنّ مدينات لنبيهن بأمور كثيرة وفي القرآن آيات ساميات في حقوقهن وما يجب لهن على الرجال فمنها مايختص بتحريم مالا يجوز من اللذائذ معهن ومنها ما يوصي بالحشمة والوقار في استعمال ما أباحه الله جاء (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حلٌّ لكم وطعامكم حلٌّ لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهنّ أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي اخدان) (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك ازكى لهم ان الله خبير بما يصنعون) (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون) وقد أخذ الصحابة عن النبي كثيراً من الاوامر المشددة التي تحرم الاسترسال مع الشهوات وعدم التمسك بقواعد العصمة والكمال فلا يجوز للخاطب أن يرى من مخطوبته غير وجهها ويديها ومن الجناح على المسلم أن يرفع بصره الى امرأة لا يريد ان يتزوجها جاء في الانجيل (من نظر الى امرأة نظر شهوة فقد زنى بقلبه) ويقول المسلمون

(لزناء العين أشد حرمة من زناء الصدور) هذه أوامر عاصمة تسوى بين الجريمة وبين مجرد الشهوة وتحرم النظر الى زوجة الغير وليس من يعيها الا المسلمون لان نساءهم محتجبات عن العيون ويرى القارئ من جميع تلك الآيات مقدار اهتمام النبي بمنع عوامل الفساد الناشئة عن التعشق بين المسلمين لكي يجعل الازواج والاباء في راحة ونعيم وربما كان الأنجيل أكثر تدقيقاً وأكد في التشديد ولكنه لا يعمل به الا قوم خصهم الله بمواهب الكمال وهم قليلون اما البقية من الامة فليس لهم اخلاق أطهر من اخلاق الامم المتدينة بغير النصرانية لكن شريعة القرآن جاءت ملطفة وجمهور المسلمين يلاحظها ويجرى على مقتضاها وقد مارسوا النظافة والاعتناء بالصحة عملا بما جاء في القرآن أو في الحديث فكانت لهم من ذلك اخلاق مخصوصة بهم وتولدت في نفوسهم ملكات الحشمة والوقار وجاء هذا مغايراً لآداب الامم المتمدنة اليوم على خط مستقيم ومزيلا لما عساه كان يحدث عن ميل الشرقيين الى الشهوات لولا هذه التعاليم والفروض والفرق بين الحشمة عند المسلم وبينها عند المسيحى كما بين السماء والارض فالمسلم ينجرح نظره ويستحى من مرأى الاعلانات التى ينشرها الغربيون ومن راقصاتهم في لباس كأنهن به عراة ومن حفلات الرقص حيث النساء خالعات العذار كاشفات المناكب ومن جميع ملاهينا التى لا تمتاز عن بعضها الا برقة ما يستر وجه الحياء. رأيت ذات يوم في سراى الوزير المصطفى بالجزائر قوما من الشيوخ رؤساء القبائل اجابوا الدعوة ليزدان المكان بوجودهم وهم من اقاصى الصحراء حيث صفاء الاخلاق

وطهارة العادات عليهم البرانس وعلائم العزة والوقار تعلو جباههم ينظرون
الى المسيحيات رائحات غاديات وهن عراة الصدور تحت ذراع من يتقدم
لهن من الرجال وقلوبهم ملئ من الاحتقار ومن كان من بين أولئك الشيوخ
غير متمسك تماماً بجميع العوائد القومية كانوا يتخيلون بانهم لا يشاهدون
حالة اعتادها الافرنج لترويح النفس بل ينظرون الى مجتمع انطلقت فيه
الشهوات ورفع فيه برقع الحياء عن الوجوه فاستباح كل واحد ما اراد كما
يقع ذلك مرة فى كل سنة عند الزنوج او بعض قبائل الهمج حيث يأتى
الاسافل من الامة مثل تلك الفعال ولكنهم عند وقوع نظرهم بين الجمع
على رؤساء المصالح الذين هم اصحاب الامرة عليهم كانوا يرجعون من وهمهم
ويعلمون ان ما يشاهدون من المناظر حقيقة اعتاد اولئك القوم عليها .
هنالك يجول بخواطرهم تعاليم شرعهم ويعظم شأن القرآن فى قلوبهم عند
ما تقترن آدابه بالمشهد المخجل الذى هم فيه (وقل للمؤمنات يغضضن من
أبصارهنّ ويحفظن فروجهنّ ولا يبدين زينتهنّ الا ماظهر منها وليضربن
بخمرهنّ على جيوبهنّ ولا يبدين زينتهنّ الا لبعولتهنّ او آبائهنّ او آباء
بعولتهنّ او ابنائهنّ او ابناء بعولتهنّ او اخوانهنّ او بنى اخوانهنّ او بنى
اخواتهن او نسائهن او ما ملكت ايمانهن او التابعين غير اولى الاربة من
الرجال او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بارجلهن
ليعلم ما يخفين من زينتهنّ وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون
(يا ايها النبى قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من
جلابيبهنّ ذلك ادنى ان يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيما) وقلما

تستبيح امرأة غير شـابة ان تـكون بلباس أقل من ذلك حشمة وكالا (والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح ان يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وان يستعففن خير لهن والله سميع عليم) ولقد اطلنا الشرح فخرجنا عن الموضوع وشرحنا اخلاق المسلمين ذلك لأننا نعتقد ان ماقدمناه برهان قاطع على ان تعدد الزوجات لم يتخذ ولم يكن ليتخذ مشجعاً على انتشار ديانة الاسلام وبقي علينا ان ننظر ان كان النبي اتخذ لذائذ الجنات التي وعد بها الشهوات سلما لاستمالة بني آدم وحملهم على اعتناق ديانته

الفصل الرابع

﴿ جنات المسلمين ﴾

الحياة الآخرة — السعادة الاخروية في مذهب المسيحيين — الرمز والتفسير — السعادة الاخروية في مذهب المسلمين

ليس للحياة الآخرة من المكانة في بعض الديانات القائلة بخلود الارواح مالها في البعض الآخر فالديانة المسيحية تشير الى انها هي المقصد الاسمى من الحياة الدنيا ولذلك يجب ان يعتقد المرء بان لذائذ هذه الدار وزخارفها خيال باطل وان يتجرد عن نفسه كي تطهر روحه فيتقدم رويداً رويداً في الحياة العقلية لينال بها السعادة العظمى ومع تكرار هذه الحقائق ونشرها بواسطة القائمين بامر هذا الدين لايزال أغلب المسيحيين يراها تصورات

ذهنية كمالية بها تجتهد الكنيسة ان ترفع ما انحط من طبائعهم ومن هنا يشاهد المتأمل فرقاً عظيما بين التعاليم والاعمال كما تتناقض الاقوال والافعال كثيراً عند المسيحيين ويرى الكثير منهم فى ضميره وان لم يجاهر به ان فى دياناتهم قسما من التخيلات لاتسمو اليه مداركهم ولا يصبو اليه الا من اختصه الله بالمواهب الصمدانية ويحسبون انهم أدوا واجباتهم باصغائهم الى تلك الحكم البالغة واعتقادهم انها من دياناتهم وانهم يرجعون اليها عند الحاجة لبيان مقامها الرفيع ومكانتها العلياء كذا هم يعملون فى قاعدة (انما الحياة الدنيا طريق الآخرة) على ان سعادة الاصفياء سر من الاسرار التى تخفى على المسيحيين وهو غريب لان سعادة الآخرة هى المرجع الذى كان يجب ان ترمى اليه اعمالنا كلها ولكن مع الاسف نرى العقول لاتكاد تدرك من هذا المقصد الاسمى شيئاً ومما يزيد الامر تعقيداً واشكالا مذهب بعثة الاجسام على الكيفية التى يذهبون اليها فانهم يقولون ان الاجسام تتحوّل يوم الحشر من أجسام مادية الى أجسام روحية . قال القديس بولس خلق الجسد من مادة تزول وسيبعث على كيفية لاتقبل الانحلال لانه خلق جسداً حيوانياً وسيبعث جسداً روحياً وماذا ياترى تكون حقيقة تلك الاجساد الروحية التى لاتزال اجساماً فلها حواس وهى ارواح فتتمكن من مشاهدة ربها . افهل السعادة التى يعدنا بها القسس والرهبان هى تصور تلك السعادة أم هى سعادة حقيقية تقوم بغير التصور والتخيلات تلك مسائل ليس فى الانجيل ولا التوراة نص صريح يفسرها وان اجتهد الكنائسيون فى ايضاح طرف منها واهمهم فى البحث هو القديس

(أوغستان) فانه كان شديد الولع بمعرفة تلك السعادة وغاية ما وصل اليه انه لم يبلغ حد اليأس في تفسير هذا السر المكنون بمعونة الله وقدرته وجميع كتبه دالة على شدة اشتغاله بتلك الحياة الادبية السعيدة التي يتصورها الاولياء فيشاهدون ربهم بتخيلها قبل البعث وبعده وعلى كل حال فلا تزال تلك السعادة سراً مختوماً لا يعرفه الناس ولايدركه الا الاولياء

ومن هنا وقعت الديانة المسيحية بين مذهبين متناقضين فمن قائل بان السعادة الاخروية انما هي حالة نفسية مرجعها طهارة القلب والمشابهة بين المخلوق والخالق ومنهم من يقول بل هي غير ذلك أمر مادى محسوس والف (سيرانتي) كتابا كله بدع غامض المعنى مبهم المراد جاء فيه ان السعادة الأخروية عبارة عن اعراس تتعاقب أثر بعضها وقال المجذوب (شريد نبورج) رئيس مذهب كنيسة أورشليم الجديد في القرن الماضي ان لجميع اللذائذ الدنيوية نظائر في الآخرة ويظن بذلك انه توصل الى حل الاشكال واعرب عن مصير الناس ولكن جاء كتابه بعبارة مستهجنة سخيفة فلم ينل من قرائه التفاتا حتى بصفته اعجوبة أو خرافا .

وأما الاسلام فلم ينظر الى الآخرة نظر الدين المسيحي ونرى المسلمين ينتظرون ماوعدهم به النبي من النعم والسعادة وقلوبهم مطمئنة ولم يضحوا الدنيا للآخرة أما نعيم الآخرة فالمتكلمون من أهل السنة يقولون بانه حالة تقوم بالنفس فتجعلها من السعداء وأما مشاهدة الذات العلية فان النبي ضرب لها امثالا حسنة قريبة المنال من مدارك الشرقيين ولولا ذلك لما عقلوها لبعد طبائعهم عن ادراك الامور المعنوية المحضة اذ الغربيون انفسهم لم يدركوا

ذلك الامر المعنوى على ان رسولهم قد كلفهم امراً جللا اذ حرم عليهم ان يفكروا فى تشبيه الخالق بالمخلوق وحرم عليهم تصوير المخلوقات الحية ولولا ذلك للزمه ان يطلب من عقولهم مالاقبل لهم به فيكلفهم بادراك اللذائذ الذهنية المحضة أو أنه يرجع بهم الى مذهب تجسم الاله ومايتبعه من الاوهام فيتصور لهم ربهم بصورة انسان جالس من حوله الاولياء والاصفياء ولكن صناعة الرمز والاشارة سهلت له الاستعلاء على هذه المشكلات (ان الله لايستحي ان يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها فاما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلا يضل به كثيراويهدى به كثيراًومايضل بهالا الفاسقين) ولو رجعنا الى القرآن لنتلو الآيات التى نزلت فى بيان سعادة الاخيار فى تلك الدار لوجدناها فى اول الامر تصف جنات عاليات قطوفهادانية كانها الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء التى توجد فى هذه الحياة الدنياوعلمنا بان تلك الاوصاف كانت من أكبر المؤثرات فى نفوس العرب المنزلة عليهم . وفى الواقع انه ليلذ الى البدوى الذى تعود ارضاً قحلاء وماء آسنا ربما لايجده ايضاً طول يومه ان يتصور بان سعادته النهائية هى الراحة فى جنة خضراء ودوحة فيحاء تسقى بماء كوثرى وفيها من كل فاكهةلذة للاكلين ولن يذوق لمثل هذا الوصف معنى الا من عاش فى البادية وكابد الحياة فى الصحراء وهذا هو السبب فى ان النبي (صلعم) كان يأتى بمثل ذلك حينا بعد حين وهو تكرار ربما تعبت منه عقول الغربيين لعدم تعودها عليه ولكنه كان يفعل كثيراً فى نفوس سامعيه من أمة العرب اذ هو فى الواقع

أسلوب فى الخطاب له منزلة رفيعة عندهم ولا يزال يثير عواطفهم ويحرك نفوسهم على بساطتها وسهولة موردها كما شاهدت ذلك بنفسى. ولقد الذ اذ أتخيل النبي واقفا تحت شمس البادية حيث لاظل يقى من حرها ويخطب فى القوم موصفا ظلال الجنة الوارفة التى وعد الله بها المتقين وأشاهد الجمع هائما من حوله مأخوذاً بحلاوة الخطاب الذى يلقيه بصوت يزداد وقعا فى القلوب (ولمن خاف مقام ربه جنتان فباى آلاء ربكما تكذبان ذواتا افنان فباى آلاء ربكما تكذبان فيهما عينان تجريان فباى آلاء ربكما تكذبان فيهما من كل فاكهة زوجان فباى آلاء ربكما تكذبان متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان فباى آلاء ربكما تكذبان) وكان كلما قال آية زاد وجد السامعين بما تزيده فى وصف الجنة من الطلاوة والتمكين .

ولقد جرى الشرقيون على عدم التفريق بين جنة الاخيار وجنة الدنيا لذلك اعجبهم ذلك الوصف فاخذ بمجامع لبهم لمطابقته اذواقهم واشتغل بها عقلهم وان لم يرد النبي بها وصف السعادة الباقية فى الواقع ونفس الامر وعلى هذا النمط جاء وصف اللذائذ السماوية وهو ايضاً مأخوذ مما كانت العرب تميل اليه فى هذه الدار (وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون (وزوجناهم بحور عين (فيهن خيرات حسان فبأى آلاء ربكما تكذبان حور مقصورات فى الخيام فبأى آلاء ربكما تكذبان لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان فبأى آلاء ربكما تكذبان متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان فبأى آلاء ربكما تكذبان) (فاصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ماأصحاب المشئمة والسابقون السابقون أولئك المقربون

فى جنات النعيم ثلة من الاولين وقليل من الآخرين على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين يطوف عليهم ولدان مخلدون باكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدّعون عنها ولا ينزفون وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون (انا أنشأناهنّ انشاء فجعلناهنّ أبكاراً عرباً اترابا لاصحاب اليمين) (ان للمتقين مفازاً حدائق وأعنابا وكواعب أترابا) تلك اشارات واستعارات ليس الامر المادى فيها الا رمزاً للعشق الروحانى وهو ضرب من ضروب الكتابة والقول معهود عند الأمم الشرقية وفى الزبور شئ كثير من ذلك وكأن الكتب المقدسة استعارت الحب الانسانى وقوة تأثيره فى النفوس لتشبه به للناس نعيم الآخرة وهو أمر طبيعى لان اجتماع النوعين الذكر والانثى يشخص فى نفوسنا نحن الغربيين صورة السعادة الابدية فالذوق الغربى لا ينفر من هذه التشابيه والاستعارات على شرط ان لا يتوسع فيها الى التصريح المطلق ولكن ذوق الشرقى لا يطلب هذه القيود وينبغى له ان يكون التشبيه تاماً فلا يغفل احد لوازمه ولا يهم طرف من متمماته وهذه وسيلة يتوصل بها الى تمكين العقول المادية من تصور الادبيات المحضة وكان هذا الاسلوب مقبولا جداً فى القرون الوسطى فقد احتوت قصة الورد لمؤلفها (غليوم لوريس) على أربعة آلاف بيت كلها صور واستعارات وتشابيه وقد ذهب بعض الباحثين الاتقياء الى ان تلك الوردة التى ولع المؤلف بحبها هى الذات الالهية لا ذات المرأة المحبوبة . ومع كون الكتاب صريح فى الاشارة الى الماديات فقد عدوه سفراً دينياً وليس هنا

موضع البحث فى صحة هذا التفسير لقصة الوردة وانما غايتنا أن نستخلص مما تقدم عدم المانع فى اعتبار مؤلفات الشرقيين قابلة لتفسير أدبي وان دل ظاهرها على ان المقصود منها أمور مادية فالعبرانيون والعرب من بعدهم استتروا باستار اللذائذ المادية والنعيم البدنى وهم انما قصدوا الادبيات والسعادة الروحانية وفى عملهم هذا تعاكس فى الالفاظ واشارات للمراد أو مفارقات وموافقات تلذ لها عقولهم ولهذا لا يسعنى ان أرى فى نشيد بعضهم (لعلها تقبلنى بفمها) اشارة الى واقعة مع امرأة كذلك ألفاظ العشق وعبارات الوجد والهيام المنثورة فى المزامير لاتنقص من قيمة هذا الكتاب المقدس وكونه كتاباً رمزياً نعم ان تقرب بعض العباد المخلصين من الله كان أمراً بعيداً عن عقول العبرانيين الاولين والعرب الاوليين والشرقيين على العموم ولكن ليس المراد هنا معرفة الوصلة والزلفى لدى الله لان ذلك يستلزم معرفة حقيقة تلك الاناشيد وهذه التشابيه وانما الغرض بيان انها رمز لا حقيقة وقد اعترف مؤرخ اللغات الشرقيـة وهو موسيو (رونان) بصحة قولنا وبأن عقول العرب والعبرانيين مطبوعة على استعمال التشابيه والاستعارات والاكثار من المجازيات فى الالفاظ

ومتى سلمنا بان المقصود من المزامير شيء آخر غير ما يعطيه ظاهر لفظها فلا يجوز حينئذ تفسيرها تفسيراً لفظياً لزمنا أن ننحو هذا النحو بعينه فى فهم الآيات القرآنية التى جاءتنا بوصف الجنان نعم يصعب علينا ان نرى خلف هذه الصور المادية الصرفة مرامى أدبية الا ان هذه الصعوبة آتية من مخالفة هذا الاستعمال لما تعودناه فى أقوالنا وكتبنا ومن السهل جداً أن

يرى الواحد خلفاً بينه وبين آخر من غير امته فى طرق التفاهم والحديث فالذى يجب أن يشار اليه بلطف ورقة عندنا يبرزه الشرقى فى صورة حقيقية فلا يدعون لعقولنا محلا لابصاره من خلال ألفاظهم

ولقد يتعذر علينا أن نعرف أى المعنيين ينطبع فى قلب المؤمن عند تلاوة القرآن معناه اللفظى أو معناه الحقيقى ويحتمل ان ذوى العقول الضعيفة منهم لا يفقهون غير مايدل عليه اللفظ بظاهره وأما الآخرون فيرون فيه معنى يميل بهم الى مرامى سامية يذوقون فيها حلاوة الزلفى بين العبد وخالقه والكثير منهم يسمعون القرآن فلا يعتقدون بظواهر كلماته ويشعرون بانه يرمى الى سعادة مخصوصة يتصورونها على كيفية غير واضحة لهم تماماً على ان فى القرآن نفسه آيات كثيرة جاءت فى السعادة الاخروية خالية من التشبيه والاستعارات . فلا يقول بان المسلمين لا يعرفون سعادة ولا نعيما مما وعدهم به القرآن غير ما كان مادياً شهوياً الا من غفل عن تلك الآيات ومال الى تغيير أصل الكتاب وقلب الحقائق التى ثبتت فيه (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم)

وقد قال المفسرون فى رضوان الله ان الله يتجلى على عباده المصطفين فتكمل سعادتهم ويتم بذلك نعيمهم وجاء (دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم ان الحمدلله رب العالمين) (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار) (زين للناس حب الشهوات من النساء

والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيـل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب)

على ان الكتاب نفسه لم يترك مجالا لمعترض فنهى عن تفسير آياته تفسيراً لفظياً أو تجسيم التشبيه بما لا يحتمله المقام فقال فى سورة آل عمران (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الالباب) (وان منهـم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسـبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون)

وقد اتفـق المتكلمون من المسلمين الذين اشتغلوا بتفسـير القرآن خصوصاً أهل السنة الذين يرجعون فى تفسيرهم الى الاحاديث النبوية والاقوال المأثورة عن السلف ويلاحظون أسباب النزول على ان السعادة الاخروية انما هى أمر ذهنى يقوم بالنفس فتصير منعمة مطمئنة وهذا النعيم هو أكبر النعم فلا نعيم بعده قال الشيخ العالم (رب ان الجنة لا ترجى الا لرؤياك فيها ولولا نور ذاتك البهية لعفناها) وانى اختم هـذا الفصل بدعاء مأثور عن الشيخ القشيرى ولعـله لايذرى ببعض كتب الدعاء المسيحية (إلهى انك تهددنى بفراق يحرمنى على الدوام من تجلياتك البهية فيارب اصنع بى ما تشاء ولاتحرمنى من مشاهدتك العلية فليس ثم أمر مذاقاً وأشد قتلا من ألم هذا الافتراق وماحيلة النفس بغير ربها الا أن تعيش فى فزع وتبقى فى

حيرة واضطراب رب ان النفس لترضى بان تذوق الموت مائة ألف مرة ولا تذوق حرقة فرقتك مرة واحدة رب ان مصائب الدهر وجميع الامراض القتالة لو اجتمعت عليّ لاحتملتها غير متوجع من وقعها ولكن لا طاقة لي على احتمال بعدك عني رب لو احتجبت عنا برهة اقحلت أرضنا وغاضت أنهارنا فماذا يكون حالنا لو دام هذا الاحتجاب لولاه لما احرقت نار الجحيم واشتد لهيبها رب ان في تجليك حياتنا وكمال سعدنا ونعيمنا وفي احتجابك عذابنا وجحيمنا)

الفصل الخامس

القضاء والقدر

متشابهات القرآن ومذهب الناسخ والمنسوخ — الاختيار والقضاء والقدر في القرآن والحديث — مذهب (توماس) ومذهب (مولينا) — الجبرية والقدرية

يثبت الناس كل مبحث بالقرآن اذ من السهل جداً ان يجد فيه الباحثون سنداً لدعاويهم المتناقضة والقرآن في هذا لا يختلف عن غيره من الكتب المقدسة التي تستوقف المطالع بظواهر متشابهاتها والقرآن على مذهب اهل السنة قديم مرقوم من الازل في اللوح المحفوظ ونزل به الملك جبريل (عليه السلام) في الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان وهي ليلة

القدر من السماء السابعة الى السماء الرابعة

ثم نزل على النبي فى الارض مفرقا فى مدى الثلاثة وعشرين سنة وهى مدة الرسالة ونرى انه لا يجب الاخذ بهذه الرواية الا فى أمر واحد هو ان الست آلاف آية التي يتألف القرآن منها نزلت تباعا بعضها اثر بعض على غير تساو فى العدد كل مرة وفى ظروف مختلفة عن بعضها كثيرا بحيث تلزم معرفتها حتى يتمكن الباحث من النظر فى المتشابهات منها وبينما الانجيل يقص على الناس جميع أدوار حياة رسوله وتعاليمه بعبارة وافية سهلت على المسيحيين من مبدإ أمرهم ان يتناقلوها خلفاً عن سلف ترى القرآن لا يأتي على شئ من ذلك غير انه كلام الله لنبيه وان سورة كذا مكية وسورة كذا مدنية وهو تقسيم اختيارى ادخل عند جمع الكتاب وليس فيه شرح او حديث يساعد على معرفة الوقائع والظروف التى استنزلت سوره وآياته وهذا هو أحد الاسباب التي تحمل على القول بان فى القرآن اختلافا وهناك سبب اخر مقبول ذلك ان الوحى كان ينزل على النبي بحسب حالة الافكار وتحولها الديني بسبب رسالته فكانت الايات تنزل كما تقتضيه تلك الحال وكان من اللازم طبعاً حصول التعديل فى اللاحق منها حتى يلائم المقام فالحكم الذى يوحى به لرد شبهة ظهرت تخالف ذلك الدين الجديد لا يمكن ان يبقى كما نزل بعد تبدل الأحوال وزوال السبب من الافكار وليس من ينكر على الطبيب تنويع الادواء بحسب أدوار المرض وتقلباته وعلماء الاسلام يردون طعن المنادين فى هذا الموضوع بمذهب الناسخ والمنسوخ فيقولون ان الله انزل أحكاما فى القرآن ثم نسخها بغيرها لاسباب

حكمية عالية

وتنقسم متشابهات القرآن الى قسمين فنها ماهو ظاهري فقط يسهل التوفيق بين قضاياه ومنها ما خفي سببه أو تعسر فهمه خصوصاً فيما يتعلق بالقدر المحتوم ولذلك تشحذت افهام العلماء في الكلام عليه وما جاء في القرآن متعلقا بهذا الموضوع قليل في جانب ماورد في الاحاديث الشريفة وهي مجلدات كبيرة جاءت بجانب القرآن كالقوانين الكنائسية وحكمها يكاد ان يكون كحكم تلك القوانين ولكنها ليست عند المسلمين في درجة القرآن اعتباراً .وقد اعتنى الجامعون كثيراً في جمعها ولكنه حصل بعد النبي بمائتي سنة تقريباً ولذلك لا يمكن للباحث ان يثق بصحتها وثوقه بصحة القرآن نفسه فلا يبعد ان بعض المتكلمين أضافوا رأيهم الى النبي وان كثيراً من الاحاديث المنسوبة اليه موضوعة لم تصدر عنه

ومن ذلك سهل على بعضهم ان يستنتج من بعض آيات القرآن ومن كثير من الاحاديث على الخصوص بان الاستسلام للقضاء والقدر اس من اساسات الدين الاسلامي وركن من اركان الاعتقاد بانه لا اختيار للمرء في افعاله ولكني ارى من السهل أيضاً ان يجد الباحث في القرآن والحديث سنداً في القول بان الدين المحمدي لا ينافي الاختيار في الانسان على انه من المسائل التي جاءت في الكتب المقدسة مالا تزال تحت نظر المتكلمين وهم الى اليوم لم يهتدوا الى حلها ومسألة التوفيق بين قدرة الخالق وارادته في كل شيء وبين الاختيار في الانسان مسألة يشترك فيها المسلمون والنصارى والخلاف فيها عند كل فريق لا يزال قائماً حتى الآن

وصف النبي ربه بانه العالم بكل شئ ثم وصفه بانه علام الغيوب وهذا الوصف الاخير جزء من الاول وقدرة الذات الالهية واستخلص من ذلك تبعية المخلوق وقال ان الله هو السبب الاعظم الاولى فى كل شئ فارجع اليه جميع اعمالنا لذلك جاء فى غير موضع من القرآن (وهو القاهر فوق عباده (عالم الغيب والشهادة (قل كلٌّ من عند الله) وكلها حقائق دارت عليها أبحاث المختلفين والنقيض على ما يقولون وهو الاختيار فى الانسان مؤيد أيضا في مواضع كثيرة من الكتاب فقد عد المشتغلون بالتفسير واحداً وخمسين آية كلها فى اثبات ذلك الاختيار يضاف اليها ثلاث عشرة آية تختص بمسؤلية الانسان عن فعله وكان من المتمنى ان يأتى النبي بما يوفق بين هذين الامرين على ان غيره من الكتب المقدسة لم يتعرض لذلك ولم يأت اجتهاد العلماء فى التوفيق بين هاتين الحقيقتين بفائدة غير توسيع الخلف او وضع الخلط والتعسف موضع سر لم تصل اليه الافهام وقد اعترف بذلك (بوسويه) فى كتابة (الاختيار) حيث يقول ان الحق لا يهدم الحق وتعذر جمعهما على الافهام لا يستلزم عدم الاعتقاد بصحة كل واحد منهما فمن المستحيل نفي الاختيار لثبوت القدرة الالهية ولا نفى القدرة الالهية لوجود الاختيار فى الانسان لانهما حقيقتان لاشك فيهما وكان يرى ان هذه المسئلة مما لا تطيقه افهام النوع البشرى وكان يوصى من يقترب منها (بان يتمسك بطرف السلسلة جهده وان لم يقف على وسطها حيث يرى كيفية الاتصال بينهما) وهذان الطرفان اللذان لا ينبغي افلات احدهما هما القدرة الربانية والحرية الانسانية أى الاختيار والوسط

الخفى علينا هو التوفيق بينهما فلسنا نعرف صنع الله الذى به يحفظ على المرء اختياره ولا كيف ان السبب الكلي القديم لا يهدم السبب الثانوى الحديث قال (بوسويه) (ذلك امر يعلمه الله فلا شأن لنا فيه ولا يضرنا بقاء السر مكتوماً لديه (سبحانه وتعالى) وهذا هو مذهب المسلمين الحقيقى فى الموضوع فان سألتهم كيف يجمعون بين قدرة الله والاختيار اجابوك من فورهم ذلك علمه عند الله كما قال (بوسويه) او قالوا ليس لاحد ان يبحث فيما يريد الله ولله ان يسأل عبيده عما يريد كما قال شيخهم البركاوى وجاء فى القرآن (لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون)

ومن هنا يتبين لك مقدار اعتقاد المسلمين فى القضاء والقدر وانما ترجع التبعة فى مذهب الاستسلام لبعض المتكلمين من علماء الاسلام دون البقية وهم الذين نفوا الاختيار حتى لا يعارضوا به قدرة الله وتفرده فى الوجود ومنهم من رأى حل الاشكال فى عكس ذلك وهم احزاب الاختيار فبينما الجبرية يقولون ان كل عمل للانسان صادر عن الله يقول القدرية ان المرء يخلق اعماله بنفسه ولا شك ان ما رواه (بالجراف) اثناء طعنه على مذهب القضاء والقدر عن النبي حديث لاحد الجبرية منسوب للرسول ولم يكن من كلام النبي وهو (لما اراد الله ان يخلق الانسان تناول بيديه الطينة التى تكوّن منها وقسمها الى قسمين متساويين وقال هذا للجنة ولا أبالى وهذا للنار ولا أبالى ولذلك اشتد (بالجراف) على الاسلام كغيره من مستشرقى الانكليز ورماه بانه دين عباد القوة حيث ان الههم اله بيده جميع الاعمال اختصاصاً واستئثاراً)

ونحن نسلم انه قد يتأتى ان عالما من علماء التوحيد المسلمين يحكم بان النعيم أو الجحيم مقدران أزلا بناء على رواية سندها غير مجمع على صحته ولكنا لانسلم مطلقاً ان ينحو هذا النحو علماء البحث فى حقائق الامور والتنقيب فى اصولها ولذلك يسهل علينا ان نقبل من (بالجراف) قوله بان دين الاسلام يرجع كل شيء الى قدرة الخالق ولا نقبل مذهب الجبرية على ان محمداً (صلى الله عليه وسلم) لم يكن من عباد القوة لكونه رأى في الله السبب الاولى فى كل شيء وسنبين ان مذهبه مقول به من فريق رفيع الكلمة بين علماء الكلام المسيحيين الذين لم يطعن على رأيهم ولم يتعرض أحد من الباحثين للقدح فى مذهبهم وليس الاسلام من الديانات التى ترجع كل شئ الى القوة بل هو أول دين ميز بين الخلق والخالق على نحو واضح بقول صريح فما أبعد الاعتقاد بالوهية الطبيعة عن شرع محمد عليه السلام فهو الذى اخرج عن الالوهية ماليس منها وبعيد عليه بعد ذلك ان يقول بان الله انما هو كل شئ ومن جهة ثانية لو رجعنا الى طبيعة افكار الشرقيين لرأيناها لاتلائم مذهب الطبيعيين وانما دب فيهم هذا الفكر من الاعجام الذين اكثروا من السفسطة فى الاسلام حتى مالوا به الى الطبيعة

ونقل (سالس) عن البخارى حديثاً يؤخذ منه ما يدل على تقرير مذهب النعيم ازلا عند المسلمين ولا يخفى ان البخارى كان من الجبرية القائلين بان الله يخلق فى المرء أعماله كلها فالانسان غير مختار وهذا ما نقله (سالس) (تقابل موسى مع آدم أمام العرش فقال موسى أنت آدم الذى

خلقك الله وبعث فيك الروح وأمر الملائكة أن يعبدوك واسكنك الجنة ثم حرمها على الناس بخطيئتك فقال آدم وأنت موسى الذي اختاره الله رسوله وائتمنك على أوامره فانزل عليك الالواح بشرعه ووهبك مناجاته اتعلم كم من الاعوام كتبت الشريعة قبل ان أخلق في الوجود فقال موسى اربعين فقال آدم أو ما قرأت فيها (فعصى آدم ربه وغوى) فاجابه موسى نعم فقال له آدم اتقدم على ملامتي لاني فعلت ما كتب الله انى فاعله قبل ان يخلقنى باربعين سنة بل قبل ان يخلق الله السموات والارض بخمسين الف عام)

ولو اننا علمنا لمن النصر منهما أمام العرش لحكمنا بوجود الاختيار فى الانسان من عدمه قال البخارى وقد سأل الناس النبي كثيراً عن المنتصر منهما فانتهى بان قال انه كان لآدم عليه السلام وهو حكم بتأييد قول بلا توضيح تراه موضوعاً اخترعه أحد الجبرية تأييداً لمذهبه ولذلك ذهب أحد أحزاب الاختيار الى ان الحق كان بيد موسى وقال ان النبي اجاب بان النصر كان لموسى ولا يؤخذ من هذين الحديثين سوى ان المسئلة كانت موضوع نظر الطرفين بين الانصار انفسهم وهو الواقع لان لدينا من الوقائع والاحوال مايدلنا على انه صلى الله عليه وسلم ما كان يحب الخوض فيها فكان يشمئز من سؤاله عن ذلك ويميل فى محادثاته الخصوصية عن تفسير ما انبهم مما نزل به الوحي عليه (اذا جاء ذكر القدر فامسكوا)

ومما تقدم يتبين انه يجب الاقلاع عن اتهام ابى الاسلام بمذهب الجبرية وان من التطرف القاء هذا الجرم على عاتق المتكلمين من المسلمين

لما قد بيناه من ان نصفهم على خلاف هذا المذهب وقد قال (رولان) ان الفريقين لم يوضحا رأيهما تماماً ولذلك تناقضت اقوالهما كما تناقضت اقوال غيرهم وفي الواقع نرى هذا التناقض بعينه عند المتكلمين من المسيحيين

ومن تمام الفائدة أن نأتى هنا بالايجاز على ما قاله المسيحيون فى اعمال المرء وتأثير الارادة الالهية فيها فهم منقسمون منذ قرون عديدة الى فريقين عظيمين لكل منهما شيعة ذات شأن خطير وهما فريق (لوايولا) وفريق (دومينيك) ولا يزال الخصام محتدماً بين الطائفتين وكل يزيد فى الخلف بما أودع فيه من حب التعصب لشيعته فهؤلاء يذهبون الى ما يقرب من مذهب الجبرية وأولئك يقولون بالاختيار فى الانسان وكل متمسك برأى قومه تمسكا ماعليه من مزيد والفريقان يعملان على تمجيد الخالق جل شأنه مع المحافظة على مذهب شيعته وعدم الخروج عن طغمته

فاما اصحاب (دومينيك) فقد انتسبوا الى (توماس) فقيل لهم تومييون وهو عنوان له وقع فى النفوس ومنزلة فى الافكار وسلطة فى المناقشات اذ يتردد الناس كثيراً فى معارضة رأى سدده ملك المذهب (هو القديس توماس المذكور سمى بذلك لبعد صيته وعلو كلمته بينهم) ومع كونه عنوانا رفيع الشأن فان من انتحلوه عادة ليسوا على استحقاق به فادعى احزاب (جامنسانيوس) الهولندى صاحب مذهب القضاء والقدر الذى حرمه البابا (ليون) العاشر انهم من اتباع القديس توماس المذكور ولا يعترف اليسوعيين لفريق (دومينيك) بالتابعية اليه لان مذهبهم يميل الى القضاء والقدر ولم يكن توماس من هذا الرأى في اعتقادهم بل أصل المذهب رجل

اندلسى يقال له (بانيس) كان يدرس علم الكلام فى سلمنك فى أواخر القرن السادس عشر ولذلك ينسب اليسوعيون مذهب دومينيك الى هذا الرجل ولكنا سنبقي للمذهب اسم توما لا ادعاء انه الحق وان لنا من الدرجة مايخولنا ان نأتى بفصل الخطاب فى مثل هذا الجدال ولكن لانه أسم قرره التاريخ فصار معروفا حتى ان المتكلمين من الوعاظ يؤيدون نسبتهم اليه بتغاليهم فى الاعجاب به وتعصبهم لذلك الرئيس الذى كان به مجد عشيرته ولقد ذهب بهم التعصب حتى ادخلوا فى تعاليمهم ان مانقل عنه انما هو أمر مقدس وحرموا على الخلف الخروج عنه وجعلوه صادرا عن معصوم لايخطأ وفرضوا على المريدين فى مذهبهم يمينا ان يقبلوا كل ماجاء عنه قضية مسلمة بغير جدال ولا مناقشة وما اشبه هذا التحريم بما جاء فى القوانين الاساسية الفرنسويه حيث نصت (لايجوز لاحد ان يطلب من الشورى المناقشة فى شكل الحكومة الجمهورية) بمعنى ان كون الحكومة جمهورية أمر يجب الاذعان اليه مطلقا ولو طلب من الكنيسة ان تفسر ماتناقض من مذهب هذا الرئيس لخيف على الشيعة ان تنحل روابطها ولذلك نراهم يهربون من التفسير بما منعوا من نظر المجتهدين فقد كان احزاب (دومينيك) ومعهم قديسهم توماس قبل تقرير مذهبه يقولون بان العذراء لم تكن معصومة فلما تقرر مذهبه قالوا معه انها من المعصومات وهو تناقض يحرم النظر فيه كما قرروا اما شيعة اليسوعيين فغير مرتبطة فى تعاليم القديس توماس بهذا اليمين ولكنهم لايريدون الجهر بمخالفته فى دفاعهم عن الاختيار بل يطعنون على (البانس) ويحاجون مذهبه بمذهب مولينا وهو

يسوعى من البرتغال ولذلك اطلق عليهم عنوان (مولينين)
وكان الجدال عنيفاً بين الطائفتين فبدأ نحو السنة التسعين بعد الاربعمائة والف من الميلاد ودام حتى نهاية القرن السابع عشر ولم تؤثر فى الحزبين أوامر البابوات المتكررة بمنعهما عن المطاردة وها قد عاد الجدال فظهر فى هذه الايام وكان كل فريق يرمى خصمه فى مبدإ النزاع بالبدع والمروق فقام بانس امام الهيكل وحرم كتاب مولينا مدعيا أنه احتوى على مسائل كلها بدع ترجع الى مذهب (بيلاج) وهو قس ظهر فى القرن الخامس انكر سبق القضاء بالجريمة التى ارتكبها آدم فى الجنة وان كل خطيئة من بعده لخطيئته السبب فيها ورد عليه مولينا فرماه بأنه من شيعة (كلفان) وهو العالم الشهير فى القرن السادس عشر مؤسس مذهب البروتستانت فى الدين المسيحي فلما رفع الخلاف الى البابا تحير فى أمره ولم يدر بماذا يحكم بين المتخاصمين وكانت قضية تتشوق الافكار لمعرفتها ويحب كل باحث فى علم الكلام الوقوف على مفصلاتها وقد دامت مطروحة امام البابا (كليمان) الثامن الى بولس الخامس وتداخل سفير اسبانيا معينا لشيعة توماس فلم يفلح بل قوى الخصام وعمد البابا بولس الخامس الى نصح الفريقين باستعمال ماامر به الانجيل من المحاسنة ولين المعاملة فكان يقول (مما لا ينبغى أبداً ان يتخاصم أولئك القسس خصام التحاقد والاستقتال كالمتوحشين) وانتهى قاضى رومافلم يقرر بان الخطاءأصله خطيئة آدم ولكنه لم يقض على أحد الفريقين بل أباح لكل نشر مذهبه وقال ان التنازع فى الدين غير معيب فان الله مع كل متدين والمذاهب تستنير بعضها كما يجلى

الماس بالماس

وسار اشياع توماش فى مذهبهم شوطا بعيداً حتى فاقوا مذهب الجبرية في الاسلام وكان (بانس) يقول (أن الله هو السبب فى جميع الموجودات فليس من سبب سواه فكل مسبب هو سببه وهو المسيطر على كل شئ وليس لغيره سلطان عليه)وكان خلفاءه يجتهدون من بعده فى التوفيق بين رأيه وبين الاختيار فى الانسان فاضطربت اقوالهم واعجمت عباراتهم وقالوا ان كل عمل واجب وجائز معاً ثم فسروه بان الله هو الذى يبعث الارادة فى الانسان ومعلوم ان الارادة مختارة فهى مسيرة حسب طبيعتها اعنى حرة فى عملها وهو غاية فى الخلط ونهاية فى الاغماض

وانتهى الجدال أخيراً بظهور مذهب جديد يقول بتأثير الله واختيار الانسان معاً وهو المذهب الذى مال اليه (بوسويه) لكونه لم ير أحسن منه فى التوفيق بين الامرين ومبناه ان الله سبب اولى والانسان سبب ثانوى ولست اريد ان افسر مذهب مولينا غير انى أقول انه أوجد لفظين سهلا الكلام ان لم يكونا قد سهلا تفاهم هذا المعنى العظيم فكان العلماء قبله يصفون الفعل بكونه واجباً أى لا بد من وقوعه وجائزاً أى يحتمل الوقوع وعدمه مع اهمال المستحيل فاضاف هو لفظاً ثالثا جعل معناه وسطا بين الحالتين وقال منتظر [1] وهو عنده الواجب المقيد بشرط اذا تم وقع والا فلا وكان يسمى العلم بالمنتظر علما وسطاً وبهذا يقدر تأثير القدرة الالهية فى الافعال وخلاصة هذا المذهب تغليب الاختيار على القضاء والقدر رداً لمذهب توماس

(١) هو في علم التوحيد الممكن المشروط

وهو تغليب الثاني على الاول

هذا واذا رجعنا الى الاسلام وجدنا شبهاً كبيراً بين القدرية والمولينيين وبين الجبرية والتوماسيين وهؤلاء وهؤلاء عور كما قال عبد الرزاق فاما القدرية وهم احزاب الاختيار فانهم فاقدوا العين اليمنى وهي الاقوى التي بها يبصر السبب الاولى واما الجبرية وهم القائلون بالقضاء والقدر فقط فانهم فاقدوا العين اليسرى وهي اقل ابصاراً لكنها تبصر السبب الخارجي او الثانوي وعنده (ان الذى يرى الصواب هو الذى يستعمل الباصرتين من قلبه فيرى باليمنى مصادر العمل الاولى ويرجع الى الله جميع الافعال خيرها وشرها ثم يرى الناس باليسرى ويبصر تأثيرهم فى تلك الافعال بذاتها) وكان هذا الخلاف العظيم سبباً فى ايجاد الفاظ مخصوصة استعملها المتناظرون الا انها لا تخلو من السفسطة فقالوا ان لكل عمل قضاء ولكل عمل قدراً فالقضاء يقرر الله كل شئ يكون والقدر هو تنفيذ الشئ المخصوص على النحو الذى تقرر بالقضاء وبيانا لذلك جاء عبد الرزاق بالقصة الآتية (بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم سائراً فى الطريق يوماً اذ رأى جداراً يريد ان ينقض فمال عنه فقال له احدهم اتريد ان تهرب من قضاء الله فاجابه فى الهرب من قضائه الى قدره)

وظهر مذهب ثالث اراد التوفيق بين الجبرية والقدرية فرأى اصحابه انه ليس من قضاء مطلق ولا من اختيار مطلق بل الامر وسط بينهما او الفعل الواحد نتيجة امرين احدهما الجبر والثاني الاختيار [illegible] لهذا المعنى [illegible] لفظاً مخصوصاً هو الكسب الاختياري [illegible]

اصحاب الجدال وقالوا ان الافعال تنبعث عن ارادة الله والمرء يكسبها باختياره ووفقوا بين بعض الاحاديث المتناقضة لا ليضعفوا من مذهب السنيين بل ليبينوا ان القضاء الازلي لا يزال سراً مجهولا

ولما سئل النبي عن مصير صديقه ابي هريرة اجاب موجزاً (القد جف القلم بما قدر له) ومعناه ان مصير كل مخلوق مكتوب من الازل في اللوح المحفوظ ولن تجد له تبديلا الا ان قوماً سألوه لمَ يعمل الناس فاجابهم (اعملو فان الله خلق في كل واحد منكم ما يقدر به ان يفعل ما خلق لاجله) وجوابه هذا قريب من قول (هيرقليت) و (هيجل) من بعده من ان المرء خلق بين اعمال كانت واعمال تكون

ويقرب مذهب عبد الرزاق كثيراً من مذهب (التوميين في هذه الايام فالمذهبان يتفقان في ان الاختيار دخلا في كينونة الافعال وعلى ان ما قدر محتوم من جهة وجائز من جهة اخرى وهي نتيجة لا تفهم وهو يقول ان القضاء يتناول الفعل نفسه وكيف يقع والكيفية هي الاختيار الانساني وجاء (بوسويه) بعده باجيال عديدة يفسر الموضوع بذاته كما فسره هو من قبل فقال يعمل الانسان العمل مختاراً بقضاء الله الذي اراد ان يكون مختاراً وهو معه في جميع ادوار الفعل حتى يكون. وليس هذا كل ما يتشابه فيه المسيحيون والمسلمون بل الحال واحد في امور كثيرة غير ما تقدم كالعدل ومسئلية العباد ومصدر الشر وايهاب السلامة من الله في الآخرة وهكذا

الى هنا امسك القلم عن الخوض في هذا الموضوع ولكن ليسمح لي القارئ ان اذكر تشبيها لعبد الرزاق المار ذكره تأييداً لحجته فانه اراد ذات

يوم ان يبين لاحد طلابه سبب ان الرجل ذا النفس الدنيئة يفضل الشر على الخير مع علمه بافضلية الثاني على الاول فقال له ان مثله مثل الزنجي الاسود الذي يحب أولاده على قبح خلقتهم ويفضلهم على ولد من ابناء الترك مع علمه بانه فوقهم في الجمال

ثبت والحالة هذه ان الاستسلام ليس من قواعد الاسلام بل هذا مذهب البعض من علماء المسلمين بدأوا كأمثالهم من المسيحيين بان قرروا ان السبب الثانوي في الافعال خاضع لتأثير السبب الاصلي ثم دفعتهم حدة الخصام فتغالوا بما شذ عن المعقول وخرج عن الصواب ذلك لان المذاهب من شأنها ان يحتدم الجدال بين احزابها فلا يتمكن الهدو من ان يسود في المناظرات ولا يتحكم المعقول وحده في المناقشات كما قال (رينبون) ثم قام أناس فنشروا تلك الاقوال المتطرفة سواء عند المسلمين او المسيحيين ولكنهم لم يؤثروا تأثيراً كبيراً كذلك يكون الحال في كل آن ولن تجد لما فطر عليه المرء من الوجدان تبديلا أما عقله فسيفنى في البحث عن حل يرضيه لهذه المسئلة الغامضة فاجتماع ارادة الله وارادة المرء في كينونة كل فعل من الافعال بحث عزيز المنال كما عز على العلماء عند المسيحيين ان يفقهوا معنى الرجل الالهي بشرط ان لا تنتفي احداهما بالاخرى أي الارادتين وهو مذهب غير مرضي عنه عند الموحدين بلا استثناء. قالوا قضاء وحكم ازلي وتأثير وميل واستعداد واجتماع وكلها الفاظ انما تدل على اجهاد الفكر في استنباط المجهول وهما اجتهد واقف بجهم فان الخطاء لازم لتفسيرهم كيفية تأثير القدرة الالهية في افعال البشر لان نواميسهم الذي

بهيهم بشرى وان يصح ان يقاس الاله بالانسان فما اشبه عقل المرء على ضعفه في بحثه عن النسبة بين السببين الالهي والبشرى بميزان فاسد ان أخذنا من احدى كفتيه يسيراً لنضيفه الى الثانية انخفضت احدى الكفتين على عجل تكاد ان تقلب الثانية وهو دليل على فساد النظر بهذه الكيفية والحاصل ان علم الله وقدرته لن يزلا يظهران لافكارنا منافيين للاختيار فينا ونحن نشعر به حقيقة لامندوحة عن التصديق بوجوده وستتعاقب الفلاسفة ويقتتلون ازمانهم في البحث والتنقيب عن امر لامحيص عنه وليس من فائدة في حله اذ الحقيقة ومقابلها من المعاني المقبولة عند جميع الناس عالمهم وجاهلهم من دون تعب ولا اشمئزاز فالاختيار في الانسان مبدأً ادبي بديهي التصديق كما قال (كانط) فهو بعيد عن مناقشات الباحثين ولا تاثير للتنقيب فيه وقد قال (لوثر) أخذاً عن (كلفان) باستعداد الانسان للمؤثرات المادية ومع ذلك لا نرى المسيحيين الكاثوليك والبروتستانت يشعرون بأنهم ليسوا احراراً فيما يأتون من الاعمال

هذا واذا بحثنا عن السبب الذى اوجب اتهام المسلمين بالاستسلام لوجدناه ناشئاً من عدم ادراك الناس لحقيقة تلك الفضيلة التى هى من خصائص ذلك الدين ومنها اشتق اسمه (اسلام) وتلك الفضيله هى الاحتمال فقليل من الديانات يأمر الناس بالرضوخ الى الارادة الالهية على النحو الذي [illegible] الاسلام والمسلمون يعملون بتلك الفضيلة فلا يفوقهم في التمسك بها [illegible] الحكم على المسلمين بمذهب الاستسلام [illegible] مما يكتوون به عند ما تصيبهم محنة فانما

هم يعلنون بذلك خضوعهم لرب السموات والارض كما يفعل المسيحيون بقولهم (فلتكن هذه ارادتك) كذلك نسبوا الى الاستسلام ثبات قدم المسلمين وعدم جزعهم من الموت واقدامهم بشجاعة تتصل بالتهور فى ميادين الحروب مقدمين رؤوسهم الى أسنة الجيوش الاوروباوية في هذه الايام وهو خطأ أيضاً لان تبسم المسلم عند ملاقاة الموت واقتحامه اخطار الحروب انما جاء من اعتقاده الجازم بنعيم الدار الاخرة ومن شدة ايقانه وايمانه مما يجعل النفس هادئة تلقى الحتوف وهى مطمئنة ولا شك فى ان الدين الاسلامي بتسهيله على الانسان انتقاله من هذه الدار قد حلّ معضلة من اصعب المشكلات ومن النقص فى مثل هذا الدين ان يرمى بانه قلل من شجاعة المسلمين الادبية او أرخى عزائمهم

الفصل السادس

انتشار الاسلام أيام الفتوحات العربية — تخطيط ممالك الاسلام
انتشاره فى افريقيا الوسطى — تجار المسلمين ومستكشفوا
الاوروباويين — الاسلام فى مبدأه وبعد ذلك
اسباب الانتشار — المرسلون المسلمون —
(الفوليوسيون والخواصه) — اسباب
انتشار الاسلام الالهية

قد كشفنا الغطاء عن العلل التى انتحلوها سببا فى انتشار الاسلام انتشاراً عظيما وبينا فسادها ووعدنا ببيان الاسباب الحقيقية عند البحث عن تقدمه فى هذه الازمان لانا نعتقدن ان استطلاع حال هذا الدين فى العصر الحاضر لايبقى اثراً لما زعموه من انه انما انتشر بحد الحسام كما فندناه من قبل ولو كان دين محمد (صلى الله عليه وسلم) انتشر بالعنف والاجبار للزم ان يقف سيره بانقضاء فتوحات المسلمين مع اننا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحيه فى جميع ارجاء المسكونة وهذه الحركة المستمرة فى هذه الايام تحمل على الاعتقاد بان الاسلام هو الدين الثالث الذى جاء موافقاً لطبيعة البشر بعد ديانة بودا الهندى والديانة المسيحية . وظن آخرون بان الاسلام كان تابعاً لتمدن العرب وحضارة الخلفاء التى كانت تأخذ بالنفوس فى دمشق وقرطبة وبغداد وانه انقضى بانقضاء ذلك قال (بارتلمى صانت هيلير) (ماعاد أحد من الناس يعتنق الاسلام) والواقع انهم اخطأوا فى معرفة

حقيقة الامرين انتشار الاسلام وتمدن العرب فاما التمدن فهو أمراً يعتبر لغواً في الاسلام أو هو نقيض له وعلى كل حال فهو عارض فيه وساعدت الظروف على نموه بجانب القرآن ولو أنه استمر لاطفأ نوردين النبي العربي بسقوط الامراء في مهواة عدم التصديق وقلة الايمان وانحياز الامة الى عالم التخيل والاوهام . وبينما كان هذا حال مدن الخلفاء الاهلة بالعمران فلا تحصى شعراؤها ولا تعد الادباء وفيها الفلاسفة يتناظرون والعلماء في المعارف يتناقشون كانت صحارى العرب وليبيا وافريقيا محتفظة على الدين الاسلامى في كماله الاصلي ولم تمسسه فيها يد أجنبي عن تعاليمه أو خارج عن شرائعه هنالك كان منبع رسل ذلك الدين الذين انتشروا في الاصقاع كما تدل عليه قبورهم البيضاء التي نشاهدها الآن في افريقيا الشمالية

وسنحصر كلامنا في انتشار القرآن على قارة أفريقيا وانما نذكر على سبيل العرض ان له في الصين عشرين مليونا من النفوس وان للمسلمين ويقال لهم عندهم (هُوَى هوى) منزلة علية في المملكة الوسطى قال موسيو (وازليف) وهو من الذين اشتغلوا بالاسلام في تلك النواحي ان مصيره القيام مقام مذهب (ساكياونى) [1] وان لمسلمي المملكة السماوية اعتقاداً جازما بان الاسلام لا بد أن يسود حتى تزول به تلك الديانة القديمة البوديه وهي مسئلة من أهم المسائل اذ الصين آهلة بثلث العالم أو تزيد فلو صاروا

---

(١) هو احد ملوك الصين تخلى عن الناس في التاسعة والعشرين من عمره وعكف على العلوم حتى برع فيها وسمى نفسه (بودا) ومعناه العالم او المتنور ووضع المذهب الذى اتخذته الصين والهند ديناً وكان ظهوره في القرن الحادى عشر قبل المسيح وقيل في القرن السابع وهو الارجح

كلهم مسلمين لاوجب ذلك تغييراً عظيما فى حالة تلك البلاد باجمعها فيمتد شرع محمد من جبل طارق الى المحيط الاكبر الهادى ويخشى على الدين المسيحى مرة أخرى ومعلوم ان أمة الصين أمة عاملة وان هدأت أخلاقها وجميع الامم تستفيد الآن من عملها فلو جاءها التعصب الاسلامى ذو البأس القوى لخشيت بقية الامم من السقوط تحت سلطانها [١] وقال موسيو (مونطيط) لقد صار من المحقق ان الاسلام ظافر لامحالة على غيره من الاديان التى تتنازع البلاد الصينية [٢] والاسلام قليل فى أوربا ومع ذلك نراه فى شمال تركيا الى ليطونية وهو ايضاً فى امريكا حيث ادخله الزنوج وغيرهم الا ان افريقيا لاتزال بلده المصطفاة فهو فيها كالديانة المسيحية فى أوربا قال موسيو (بولنياك) يسكن المسلمون جميع الشواطئ من (سيارليون) الى موزنبيق البرتغالية ماراً بمراكش وولايات البربر (المغاربة) وقال السويس واما فى الوسط فيمتد الاسلام من البحر الاحمر الى المحيط الاتلانتيقى ومنه الى البحر الابيض المتوسط الى الدرجة السادسة من العرض الشمالى وتقدم انه فى الساحل يمتد الى موزنبيق البرتغالية اعنى انه يقرب من الدرجة العاشرة من العرض الجنوبى وفى (مدغسكر) كثير من المسلمين حتى ان بعض المستشرقين ذهبوا الى ان اسم الجزيرة (مدغسكر) أصله مأخوذ عن العرب قال موسيو مونطيط وأكثر انتشار الاسلام فى أفريقيا فهو يتقدم فيها

( ) راجع كتاب موسيو دابرى المسمى الديانة المحمدية فى الصين وتركستان الشرقية المطبوع فى باريس سنة ١٨٧٨

(٢) راجع مجلة تاريخ الديانات فى شهرى مايو ويونيو سنة ١٨٨٣

تقدماً سريعاً وينجح نجاحا كليا لان أزر المسلمين فيها مشدود بما لهم من المكنة فى الجهة الشمالية وهم آمنون على سلطتهم الدينية فى تلك البقاع التى تغيب فى الصحراء حتى تبلغ بلاد السودان الواسعة فلا ينازع الدين الاسلامى دين غيره لذلك يكثر عددهم وينمو الدين على الدوام

وقد تخطى سيره السودان وأشرأب نحو ارجاء خط الاستواء وكان له مقر يقرب من املاك فرنسا في بلاد النيجر لذلك عرفه ضباط الطلائع وان كانت معرفة سطحية ولكنا لم نقف على سيره تماما الا عند ما استولينا على الكونغو وشاهدنا القوافل الاسلامية تهرب أمامنا كمن يريد ان يخفى سراً عن أجنبي والمسلمون اليوم محصورون بين أملاكنا فى شمال افريقيا ومراكزنا فى الكونغو وسنغال حتى كأنهم فى قراصة نشدها او نفسح فيها حسب ماتقتضيه سياستنا

ولانتشار الاسلام فى وسط افريقيا منبعان الاول فى الغرب وهو قديم امتد اثره الى الشاطىء الاتلانتيكى حيث دخل القرآن واعتقده سكان تلك الجهات ولكنه انثنى امام تقدم الفرنساويين من ناحية سنغال الى بلاد النيجر ولم يزل ينثنى آناً فآناً حتى خرج من (تنبكتو) وهى منبعه الاصلى الى (سقطو) ومنها الى (كانو) ثم الى (كوكا) والظاهر انه استقر فيها وأما المنبع الثانى ففى الشرق وهو حديث العهد ويصل أثره بين (ودّاى) ودارفور بحركين هما المهدى ورئيس الطائفة السنوسية ويفصل بين هذين المنبعين انهار (شاد) و (شارى) و (اوغونى) الجنوبية وأهل الشرق أهل حروب متعصبون اما قوم الغرب فيميلون الى التجارة والمسالمة وكان الفريقان

يتقدمان بالاسلام بين الوثنيين المجاورين لهم على امتداد اثنى عشر ألف كيلو متر حتى تلاقوا بالفرنسويين قبيل الكونغو نواحى نهر شاد فلم تقر أعينهم لهذه اللقيا لانهم كانوا هجروا البلاد التى هاجمها الكفار وظنوا انهم يأمنون لقاءهم فى الجنوب فلا يجدوا غير الوثنيين ممن لم يعرفوا للاورباويين خبراً ويقال ان الاورباويين الذين التقوا معهم اتوا من اقطار بعيدة في الجنوب حيث تمت لهم فيها السيادة ولهم فيها مراكب ومدرعات تروح وتغدو فى انهار واسعة تجرى من الشرق الى الغرب

ومن الامور ذات الاهمية الكبرى بالنظر الى انتشار الاسلام توسط الاوروباويين فى افريقيا وحلولهم فى بلاد نهر الكونغو لانهم بذلك قسموا القارة الافريقية من طرف الى طرف وربما يخشى على حركة الاسلام الذى كان يمتد رويداً رويداً مطمئناً من الشمال الى الجنوب كما يخشى على التجارة التى كانت تروح وتغدو مع القوافل الاسلامية فينعكس مجراها فتميل الى الغرب نحو نهر الكونغو لذلك اشتغل رؤساء المسلمين بهذا الامر اشتغالا لا مزيد عليه حذراً من انقلاب الحال فى تلك البلاد ولقد يفيد المتأمل ان يعرف كيف كانت نتائج مقابلة الاوروباويين القادمين من جهة الكونغو مع المسلمين النازلين من السودان لولا ان هذا البحث يبعدنا عن مقصدنا فلنقتصر على البحث عن العلة فى حياة الدين الاسلامى تلك الحياة القوية وما السبب فى انتشاره هذا الانتشار العجيب

وهنا يجب البحث فيما اذا كان الاسلام دينا عموميا بطبيعته كدين بودا وكالدين المسيحى أو هو دين خاص بامة من الامم وهو بحث طرق

بابه من قبل موسيو كينان والجواب عليه صريح لا شك فيه من الجهة العلمية فالاسلام دين عام بغير شبهة لاننا نشاهد من المسلمين فى كل أمة على اختلاف الاجناس والبلدان فمنهم الشرقى والتترى والغربى والهندى والزنجي بقي علينا ان نعرف مع موسيو كينان ان كانت هذه الحالة العمومية ناشئة من طبيعة الدين أو متولدة من اسباب أخرى وهو يرى ان الامة العربية ليست مهده الطبيعي وانما هو ينتهي اليها وليس فى طبيعة هذا الدين انه دين عمومى وهو قيد ناشئ عن نظر فى الموضوع من أحدى جهاته فقط لان الدين الاسلامى الذى منشأه القرآن والسنة هو الذى تولد عنه ذلك الاسلام الذى يعترف المؤلف المشار اليه بانه دين عام لامحالة وانتقاله من حالته الاولى الى الثانية حصل تدريجاً بطريقة يتعذر ضبطها وذلك بتأثير الزمان والامم المختلفة التى اعتنقته بحيث يتعسر التفريق بين تقدير تأثيره من حيث هو فى أصله وتأثيره بعد ان صار كما نراه فى هذه الايام فلا يغضبن موسيو كينان اذا حذفت تقسيمه الاسلام الى اولى ولاحق وقلت فيه كله كما قال فى كتابه انه دين عمومى

على ان الانتقال من حالة أولية الى غيرها ليس عرضاً خاصاً بالدين المحمدى بل تشترك فيه جميع الاديان

فما يعزى الى حالة الاسلام الحالية انتشار مذهب الزهد والاعتقاد بالاولياء وبعض الاموات وكثير من التعبدات الاخرى وسببه ان المرء طماع فى الدين باصل الخلقة ولكل أمل خاص ومن هنا تولدت تلك المذاهب والافكار ارضاء لشهوات تشتد ظهوراً كما تقادم العهد عليها ولم ينج الاسلا

من لوازم هذه الضرورة بل خضع اليها وأداها حقها وهذا من أكبر أسباب تقدمه ولكنه أيضاً سبب من أسباب تناقضه لان تلك المذاهب تخالف مبدأه ولقد تجد النفوس التي رفعت أعنتها الى السماء ومالت الى التجرد عن الحواس ورغبت في مشاهدة الحضرة الربانية طريقاً مسلوكا في مذهب التصوف يسهل عليها النسك والتعبد وقلما يلومهم بعض المتشددين من العلماء وان كان التزهد بهذه الصفة أي الاعتقاد بالوصلة بين العبد والله مما يخالف مذهب التوحيد ومن الناس من يرى نفسه بعيداً عن ربه فلا يستطيع أن يرفع دعاءه اليه وهو في بعض الاحيان غريب (كقوله إلهي ارزقني من الابناء ذكوراً ولا تجعل ماشيتي تلد الا اناثاً) ولمثل تلك الافهام وجد في الاسلام مذهب الواصلين والذين صار بيدهم توزيع كثير من المبرات في اعتقاد العامة واليهم صار يرحل الجمع العديد من القوم الذين ضلوا سواء السبيل فيجتمع اليهم قطاع الطريق والشحاذون والنسوة العاقرات وشبان يريدون الثروة أو الجاه وشيوخ نضب عود قواهم مع اننا لو رجعنا الى القرآن لرأينا التصديق بالاولياء غير شرعي ولوجدنا ان النبي (صلى الله عليه وسلم) حرم الاعتقاد بهم (والذين اتخذوا من دونه أولياءَ ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) والواقع ان الاسلام في مبدإ ظهوره ما كان يقبل غير الاعتقاد بالله الواحد الاحد وقد بقي هذا المذهب كما بدأ فهو اليوم جامعة تلك المذاهب واليه ينتهي كل اعتقاد

ومن مزايا الاسلام انه دين رحيم فهو يعد الجنة والنعيم لكل مؤمن من دون تمييز على التقريب فالمحارب يموت شهيداً والعالم يكتفي بتلاوة القرآن

والاثنان مقبولان عند الله وللفقير مكان علىّ وللغني درجة رفيعة

ولقد كان فكر النبي في الالوهية من ارفع الافكار واسماها ولكنه تساهل كثيراً في تقدير الانسانية لذلك تسامح للناس كثيراً في رغباتهم وما كانوا اليه يميلون. نعم يجب على الرجل أن يعتقد ويعبد الله ولكن لايجب عليه أن يحارب نفسه ويعذبها العذاب الاليم ليقهرها اذ لاينبغي له أن يطلب لنفسه الكمال ولن يصل اليه لان من أراد الكمال فكأنه أراد أن يساوي الاله في جلاله وهو اسوأ الاعمال وأخبث الرغبات وكان رسول الله يميل الى بعض مايميل الناس اليه من المشتهيات فكان يقول على أسلوب بسيط (حبب الىّ من دنيا كم ثلاث النساء والطيب وقرّة عيني في الصلاة) ولقد يعسر الجمع بين هذا التفضيل وبين الميل الى النساء حتى يكاد العقل أن يرى في الامر تهكماً ولكن هذه الجملة لاتحتوى في الحقيقة على معنى خفى بل ما يفهم من لفظها هو الذى قصد منها ومن وعاها فقد عرف الاسلام كما ينبغي وقد ورث المسلمون عن نبيهم ميلهم الى ما كان يميل اليه فالصلاة في قلوبهم منزلة سامية وليس التعبد بها عندهم خاصاً بالنساء والاطفال كما هو عند المسيحيين بل هي مزية من مزايا الرجال واحدى جهات فضلهم على النساء ولا يواظب عليها الصبي او المرأة الا نادراً لاعتبارها عند المسلمين من اعظم الامور التى تلزم فيها صفات الرجل التام

ومع ذلك فمن الشهوات مانهى النبي عنه وامر بمجاهدة النفس فيه فقد حرم على المسلمين شرب الخمر وكل شراب يؤثر مثله وقد بالغ المسلمون في العمل بهذا النهي فكان من وراء ذلك ان نجت الامم الاسلامية من

مرض المسكرات وهى الداهية التى تفجع اليوم أمماً كثيرة من المسيحيين وكانت احدى الاسباب فى اضطراب المجتمع الانسانى وظهور مذهب الفوضويين مما تجهله الامم الاسلامية

هكذا جذب الاسلام قسما عظيما من العالم بما اودع فيه من اعلاء شأن النفس بتصور الذات الالهية على صفات فوق صفات البشر تذكرها خمس صلوات في كل يوم وبما اشتمل عليه من الترفق بطبيعة البشر حيث اتاح للناس شيئاً مما يشتهون واعظم عامل فى انتشار الاسلام خصوصاً عند الامم الزنجية (السود) بساطة مذهبه وسذاجه تعاليمه وهو سبب موجود فى القرآن نفسه فهو بذلك يلائم طباع الهمج كثيراً الذين لم يعرفوا ديناً من قبل ذلك . دين لا اسرار فيه وكلمته أى كلمة الشهادة يعتاض عنها عند الاحتضار باشارة تدل عليها كرفع السبابة الى السماء اشارة الى وحدانية الله تعالى فكلما وجد الرجل الجاهلى امامه دينين متحدين فى حقيقتين وحدانية الله وخلود الروح وهما الاسلام ودين عيسى تراه يختار الدين الذى لا يزيد شيئاً عن تينك الحقيقتين ويعتنق الاسلام بلا محالة وهى قوة يفضل بها القرآن الديانة المسيحية فى الانتشار وكانت معروفة عند القرن السابع عشر لذلك نقرأ فى كتاب القس (ماراشى) الذى سماه (الرد على القرآن) (ولا يغيبن عن ذهن القارىء ان تلك الطائفة الشريرة أو المخرفة أو ماتشاء من الاسماء لا تزال حافظة لكل مافي الدين المسيحى من الامور الظاهرة الوضوح القريبة التصديق مضافاً اليه مايوافق نظام الكون وقانون النشأة الطبيعية فقد أبعد عنه أحاجى الانجيل التى تخالها

في أول الامر غير صحيحة لا تدركها العقول كما انه جرد تعاليمه من كل قاعدة يشد بها الخناق على البشر مما جاء في ذلك الكتاب وبهذه الواسطة تمكن من رفع العقبتين اللتين يحس كل واحد منا بانهما الحاجز بينه وبين الدين الحق الصحيح وهما عقبة الروح وعقبة الجسم وهذا هو السبب في ان الوثنيين الذين يريدون ترك دينهم في أيامنا هذه يعتاضون عنه بالاسلام دون الديانة المسيحية)

بقي علينا ان نستقصي الاسباب والوسائل المستعملة الآن لانتشار الاسلام وهنا أيضاً نجد سبباً عظيما من أسباب انتشار القرآن فرافعوا راية الاسلام هم في العادة تجار بلد واحد تضافروا على جلب الرزق من بلاد قاصية فالمبشر الاسلامي (وليلاحظ ان هذا الاسم غير صحيح عند المسلمين اذ ليس لدينهم مبشرون منقطعون لهذا الامر كالمسيحيين) لا يوجب عند الامم الجاهلية خوفاً منه ولا فرقاً لمقدمه كما يحصل لهم ذلك من المبشرين المسيحيين وهم كما قال موسيو مونتيل يعتنقون دينه لانه لم يعرضه عليهم فما أشبه الامم بالاطفال ترغب عما يقدم اليها وترغب فيما تحسبه ممنوعا عليها أما الطرق المستعملة في انتشاره فكثيرة متنوعة وأحسن موقع نبحث فيه عنها جهات افريقيا بجانب الاملاك الفرنساوية قرب خط الاستواء فليس من جهة يشاهد المرء فيها تقدم الاسلام أحسن منها

والقائمون بهذا العمل هم (الفولبوسيون) وهم الجنس الابيض في السودان وله الاولوية على غيره . وهو اعرق في الاسلام واليهم أشرنا عند

ما قلنا بأن أحد منبعى الاسلام أقاليم نهر شادو وقد شاهدهم المكتشفون الفرنساويون فى (شارى) و (لوغونه) والفولبوسيون يقصدون نشر الاسلام وتوسيع متاجرهم ثم هم يرمون الى غرض آخر هو اتساع نطاق سلطتهم فلهم خطط سياسية فى الاستعمال مثل أوروبا يعملون لاجلها فى افريقيا قال موسيو (مستران) ان الذى الفت ذهننا كثيراً لما قدمنا الى جهات شارى هو النظام السياسى الذى تمكنت ملوك الاسلام فى اواسط افريقيا من ايجاده بين الامم التى دانت لحكامتهم) وللفولبوسيين مساعد كبير من عشائر يقال لها الخواصة وهم من الجنس الابيض واقرب عهد بالاسلام وأقل منهم منزلة فنسبتهم اليهم كنسبة اليهودى للعربى ولقد شبهنا باليهودى لانه تشبيه قال به جميع الرواد والمكتشفين من الاوروباويين فالخواصة أمة لازمة لكنها محتقرة كما هو شأن اليهودى يحب المال ويتكهن طرق اكتسابه ولا يخاطر بتجره فيسير خلف (الفولبوس) وهو رجل الحرب والفتوح ولا يستقر به القرار الا اذا آمن وتمكن والخواصة هم اهل المعارف والعلوم فى السودان حتى كأنهم احتكروها الا أن علمهم قاصر على شيء يسير كالقراءة والكتابة فى اللغة العربية وهو كاف لنفوذهم فى الوثنيين لان هؤلاء يعظمون الكاتب والقارئ الى درجة العبادة تقريباً ومع ذلك فلا يزال الخواص وضيع الدرجة فى عين متبوعه الفولبوس فالفولبوسيون هم انصار الاسلام فى الحقيقة والخواصة منهم بمنزلة الوعاظ والفقهاء

ويعزى امتداد سطوة الفولبوس دينياً وسياسياً الى تداخلهم فى

الخصومات التي تتكرر بين القبائل الوثنية المجاورة اليهم فما تخاصم الاهالي الا وتداخل الفولبوسيون اما الجهات التي اجتمعت فيها قلوب الوثنيين وخفت وطأة الشقاق لديهم فلا يدخلون بينهم بدينهم وسياستهم الا بالعناء ويتوصلون الى غرضهم في الغالب عند ما ترتكب جريمة قتل أو سلب حيث يوجد قوم من المسلمين لانهم يرسلون اليهم الكتائب لتقتص منهم وبذلك ينتشر دينهم وتعلو كلمتهم ومهما تنوعت اسباب تداخلهم فان طريقة سياستهم تدل على حذق واقتدار فيها ومرجعها الى مبدإ الحماية الذي توصلوا الى وضعه بين الامم الهمج كما رواه موسيو (مستر) فمن احتمى بهم فقد أمن ومن خرج عن طاعتهم اصبح مهدداً ومتى احتمت بهم قبيلة ذهب رؤساؤها الى ملوك الاسلام في السودان فيولونهم المناصب ويلبسونهم الخلع ويردونهم الى اوطانهم يحكمون فيها باسم سلاطين المسلمين وتحت رعايتهم فان كانت القبيلة او القرية عظيمة ارسل السلطان اليها رسولا من قبله ليلاحظ حكومتها بالنيابة عنه والسفراء كلهم من الخواصة يكونون بجانب الحكام مستشارين ذوي كلمة ونفوذ ومعارفهم وما تعلموه من الاحكام بالقرآن تؤهلهم الى القضاء لمنفعة اللاجئين اليهم وهم كالعلم يجتمع حوله التجار الوافدون من السودان وقد يتفق ان بعض القبائل الوثنية لا تخضع من اول ظهور الفولبوسيين بينهم هنالك تسطو عليهم قبائلهم فتسلب منهم وتأخذ ابناء الرؤساء فتبعث بهم الى السودان حيث يتربون على مبادئهم ومبادئ الخواصة وبعد زمن يرجعونهم الى بلادهم فيقومون فيها كنواب عنهم مثل الحكام الذين ترسلهم الممالك الاوروباوية في مستعمراتها وفي تلك الاثناء ينتشر الاسلام بمجرد

الاختلاط والمعاشرة وحب التقليد بدون أدنى اكراه ولا تعيين رسل أو مبشرين اذ بمجرّد أن يشترى الوثني خرقة القطن من أحد الخواصة ويستر بها عورته يأخذ في تقليد البائع فى الصلاة كالقردة ويتعسر بيان اللحظة التي يصير فيها مسلما حقيقياً لان اسلامه يأتيه تدريجاً ومتى كثر عدد المسلمين فى بلد أقام فيها الفولبوسيون مدارس يتولى الخواصة التعليم فيها ولكنهم لا يتداخلون فى نشر الاسلام مباشرة بين البقية بل يتركون ذلك للخواصة أو للاهالى أنفسهم

ونذكر من الوسائل الناجحة فى يد الفولبوسيين لانتشار الاسلام الزواج فان سلاطين السودان يتزوّجون من العائلات الوثنية لهذه الغاية ولا تمكث النساء وأولادهنّ حتى يصير الكل من أقوى الاسباب على انتشار الدين الاسلامي وقد أشار موسيو (رونان) الى ذلك فى بعض كتبه حيث يقول (من الصعب أن يصم المرء اذنه اذا تقدمت اليه النساء والاطفال ومد كل يديه اليه وطلب منه ان اعتقد عن نعتقد) على ان الزواج هو السبب فى وجود أنصار الاسلام الاولين وكثيراً ما تزوّج النبي لخدمة دينه لا لشهوة فى نفسه فقد صرّح بأن الله أباح له الجمع بين عشر نساء خلافاً لما فرضه لجميع المسلمين وهو اختصاص تدرك غايته لمن تأمل فى الامور لانه كان معصوماً عن النساء حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره وتزوّج بالسيدة خديجة بعد وفاة زوجها الاول وقضى خمسة وعشرين سنة بعد ذلك مع هذه الزوجة وكانت تلده ولم يمل الى ما اباحته العرب قبل الاسلام واباحه القرآن بعد ذلك من تعدد الزوجات ولم يتسرى ثم توفيت خديجة

سنة ٦١٩ وعاش بعدها اثنتى عشرة سنة تزوّج فى خلالها بعشر نساء ليس بينهن الا اثنتين كانتا بكراً والباقيات مطلقات أو مترملات قال (رولان) ان كثرة زواج النبي كانت لتزيد فى نشر أوهامه وهو قول يقصد به قائله القدح ولكنه حجة على ان النبي لم يكن فى تعدد الزوجات شهويا

هذه هى أهم الاسباب فى انتشار الاسلام ولست ادرى ان كانت تكفى لادراك سر هذا الدين فى انتشاره او انه يجب البحث معها عن اسباب سماوية غير ان الاسلام خرج من ذرية اسماعيل وسرى فى الارض كما خرجت المسيحية من ذرية اسحاق وقد بارك الله فى ابناء الخادمة كما بارك فى ابناء السيدة

ونحن نعلم ان يهوذا قال لابراهيم عن اسماعيل انه سيبارك فيه ويكثر من نسله كثيراً وكرر له ذلك بقوله انه سيبارك له فى ابن الخادمة فتخرج من صلبه أمة كبرى لكونه من أولادك وأعاد يهوذا هذه البشرى مرة ثالثة لوالدة ذلك الطفل الذي نجا فى الصحراء حيث رمى ليموت عطشاً وقصة ظهور الملاك الى هاجر من أجمل الروايات ووصف بادية الظماء ولهف الام على ولدها من ألطف ما يقال (نضب الماء فى الزق ورمت هاجر الطفل تحت شجرة وابتعدت قليلا ثم جلست أمامه على مسافة مرمى النبل وقالت لست أصبر أن أرى ابنى يموت ثم رفعت صوتها بالبكاء وقد كان بكاء الطفل قد سبقها الى السماء فناجاها الملاك من قبل الله ما لك ياهاجر لا تخافى فقد سمع الرب صوت الطفل من المكان الذى وضعتيه فيه فقومى وساعديه على القيام وليشتد ساعدك على حمله فسيكون من ذريته أمة كبرى)

ولقد ارتعشت يدى عند ما مددتها لازيل الغطاء عن الكتاب المقدس

كى أنقل الآيات التى سطرتهـا ولولا ما قاله الأب بروغلى من ان تقدم الاسلام أمر مندرج تحت مابشر به أبو المؤمنين لما تجرأت أن أطبق تلك الآيات على الاسلام ولا ذهبت الى ان فى انتشار هذا الدين سراً من الاسرار الربانية

﴿ الفصل السابع ﴾

« الاسلام فى الجزائر »

استعصاء المسلمين على التنصر — المبشرون بغير رسالة — جمعيات الدين في الاسلام — غرض تلك الجمعيات — تحول الهيئة فى المسلمين — التقاليد — الثورات

شاهدنا الاسلام يبرهن على قوته وحياته باكتساب الوثنيين فى أواسط أفريقيا وتجنيدهم تحت راية القرآن وله كذلك فى الشمال الشرقى من بلاد الزنج وفى مصر العليا (السودان) وفى (سريناق) مايدل على قوته الغريبة وسيره المدهش اذ قامت مملكتان قويتان مملكة المهدى ومملكة امام جغبوب منذ خمسين سنة على هيئة حكومات تشخص الحكومة الدينيـة التى أرادها النبى الاسلامى كذلك توجد فى الزاوية المقابلة لهاتين المملكتين مملكة ثالثة فى شمال أفريقيا وهى على نسقهما ولا تزال تقاوم هجمات الديانة المسيحية ظافرة عليها ونعنى بها مملكة مراكش ولا شك فى ان سلطانها مع ماعليه بعض العشائر التى تسكن البلاد الخاضعة لحكمه من عدم الاذعان تماما لسلطته سيكون

اذا ألمت بتلك الاقطار المحن حامى حوزة الدين الاسلامى فى الغرب باجمعه ونحن نترك البحث فى حال هاتيك الممالك الاسلامية التى اجتمعت فيها السلطة الدينية والسلطة السياسية فى يد حاكم واحد طبقاً لقواعد القرآن وهى البلاد الممتازة التى حفظ الموحدون فى مكة لها اسم دار السلام وهو الاسم الذى تميل اليه نفس مصر وتركيا على غير جدوى حيث التمدن الغربى قد كدر صفاء المذهب الاصلى ونقتصر على الاسلام فى الجزائر وفى ممالكنا الافريقية حيث يزاحمه الدين المسيحى والحكومة المسيحية وهى البلاد التى سماها المسلمون دار الحرب أى دار الجهاد فى الاسلام والبحث عن الاسلام فيها يدور على ثلاث مسائل . هل أحدث الانجيل تغييراً فى القرآن واذا فرضنا ان الاسلام لم يزل محفوظاً هل حصل تقرب بين المسلمين والمسيحيين يرجى معه حصول الامتزاج التام فى المستقبل وهل الجهاد اعنى خروج المسلمين عن طاعة حكامهم المسيحيين لايزال امراً منتظراً يهدد فتح هاتيك الاقطار

فاما الاسلام فليس من اهله من يمرق عنه الى غيره وبعيد عن فكر المسلمين تصور هذا الامر حتى انهم لايجدون لفظاً يعبرون به عن صفات من يأتيه كما انهم تحيروا فى وصف المسلمين الذين تجنسوا بالجنسية الفرنساوية لان فيها معنى من معانى الردة ولذلك اضطروا الى استعمال لفظ من الفاظ اللغة الفرنساوية ليطلقوه اسما عليهم فقالوا (متورنى) باسكان الميم وضم التاء ومعناه المنقلبون .

ومن الصعب ان يكيف الانسان حالة مسلم يريد أحد المسيحيين ان

ينصره حتى لو شبهناه بمسيحي متنور يريد وثني ان يميل به الى عبادة الاصنام لكان التشبيه ناقصاً والسبب في استعصاء المسلم على التدين بالنصرانية استعصاء قويا هو احتقاره النصارى واعجابه كل الاعجاب بكونه من الموحدين وقد يعتقد بعضهم ان فضل دينهم يفوق على النصرانية بدرجات يستحيل معها على المسيحيين ان لا يوقنوا بصحة الاسلام حتى انهم يتخذون مسالمتنا اعترافا ضمنياً منا بتلك الافضلية ولانهم انما يعبدون الله تعبداً ذهنيا وليس لديهم من علامات أو معدات خارجية ويرون في احتفالات النصارى ضربا من ضروب العبادة الوثنية ويسمون ارباب الانجيل أهل الكتاب ولكنهم لا يجعلونهم في الرتبة التي تلي رتبة المسلمين بل كثير منهم يمقتونهم أكثر من مقت الوثنيين لكونهم غيروا ماانزل الله عليهم من الدين بعد ماعلموه

تلك هي افكار المسلمين في الديانة المسيحية وبديهي انها مانع حصين يحول بين النصرانية وبين التقدم فلقد نجح المرسلون في تنصير الامم المختلفة التي انتشروا فيها سواء كانت متبربرة أو متمدنة ولكنهم لم يروا في طريقهم بلداً قام في وجههم وسدت عليهم فيه جميع ابواب الفتح كما لاقوا من المسلمين لاننا شاهدنا الوثنيين المتمدنين تركوا دينهم الهمجي لعدم موافقته لما وصلت اليه عقولهم من التهذيب وكان لهم من تهذيبهم معين على تلقي المعقولات المحضة فسهل ذلك على المسلمين عرض مذهبهم بطريق التقرير المنطقي وتمكنوا من اقناعهم حتى ان القديس بولس نفسه كان يلاقي كثيراً من الوثنيين الذين يتركون آلهتهم لتبينهم كذبها ويرى من بعض اليونان

ميلا الى أخـذ الامور بالدليل والبرهان وقد سهل ايضا تنصير الوثنيـين المتبربرين بماالمرسلين عليهم من المزية فى العلم والافضلية فى سمو الادراك ولـكن أى مرسل وأى خبير يمكنه ابداً ان يزحزح المسلم عن تمسكه بدينه ويجعله يعبد مااحتقر ويحتقر ذلك الدين المتين الذى يرى فيه مجده الاعلى وكيف يمكن لأولئك المرسـلين ان يزيلوا من فكره ماتمكن منه ضد الديانة المسيحية الى الابد وهو لايقبل المنـاظرة فيها ولايطيق الجدال عليها : . . . .

ولقد تسألوا عن امكان محاربة الاسلام بالعنف والقوة حيث هو لا يقبل التبدل بالاقناع والحجة ولـكنه ما كان يتيسر للفرنسـاويين ايام الفتح ان يخضعوا المسلمين للدين المسيحى كما فعل الملك شارلمان بل اضطرت الـكنيسة الى السكون كما التزمت جانب المسالمة فى هذه الايام بين الامم والمسـالمة حكمة منها ولـكنها لاتقبلها بصفة مبدأ من مبادىء الدين المسيحى بل تردها رداً . هكذا كان محظوراً علينا كل قهر فى الدين طبقاً لمعاهدة الجزائر حيث التزمت فيها الحكومة الفرنساوية بواسطة الجنرال (بورمون) ان تحافظ على ديانة رعاياها من العرب وتحترمها وقد كاد ان يحصل استثناء سنة ١٨٦٨ ذلك ان اسقف الجزائر أخذته الحمية واراد ان ينصر عددا كبيراً من المسلمين فجمع كثيراً من اليتامى بعد القحط المهلك الذى ابتليت به الجزائر وعمدهم ولـكن الجنرال (مكماهون) حاكم البلاد اذ ذاك تداخل وابطل هذا المسعى لمخالفته لما تعهدت به فرنسا ومن عجائب المتناقضات ان في الجزائر الآن من الـكتاب من يأسف على ترك تلك الطريقة ولو انهم كانوا في عاصمة

بلادهم لاصطفوا بين أشد الناس دفاعا عن حرية الاديان فكأنهم يرجون حكومة تسعى فى تفريق الاديان بالهدايا وبذل الاموال من جهة وتضطهد المسلمين الموحدين فى دينهم من جهة أخرى ولو انه قام فى مبدأ الفتح قس ماهر وساعده امير يميل الى انتشار الدين المسيحى من نفسه أو بتأثير النساء عليه فجمع ذلك القس اليه كل ساخط على الحكومة والحال الجديد ووعدهم بالمال وعزة الجاه لكان لنا سنة ١٨٧٠ آلاف مؤلفة من العرب قد تركوا دينهم وتربوا تربية فرنساوية حقة

فاستعصاء المسلمين على التنصر بواسطة المرسلين واستحالة اخضاعهم بالقوة هما السببان اللذان يعترضان تنصرهم والمرسلون من الكاثوليك هم أول المعترفين بوجوب العدول عن الوعظ مباشرة ولكنهم مع ذلك متمسكون برسالتهم فلم يملوا من الجهاد فى سبيلها ولم تنحط عزائمهم امام صلابة الاسلام فاينما نزلوا مهدوا الطريق وآووا الفقراء والمساكين واقاموا فى خدمة المرضى ونشروا التعليم بين الاطفال قال موسيو (سريفاريا) ولكنهم لم يحوموا حول مسئلة الدين مطلقاً وهم انما يزرعون البعد عن الدين مع كونهم من الاحبار على انهم لم ينجحوا فى ادخال الانجيل بين العرب فقد كانوا من احسن الوسائل لنشر نفوذ الدولة الفرنساوية والحكومة مخطئة فى عدم حمايتهم والمبالغة فى مساعدتهم مع انهم قصروا حياتهم على خدمة الدين ومع ذلك [illegible] الشرا[illegible] وعملوا على ما فيه منفعة فرنسا تركا لما لا يستطاع ولات [illegible] ماقات فقد انتشر المرسلون من الانكليز البروتستانت بين القبائل وجعلوا يقلصون ظل سيادتنا هنالك ترسل الدولة البريطانية

التوراة تحملها الرعاة الى تلك البلاد التى فتحها جنودنا مرات متتابعة كما ترسلهم فى جميع ارجاء المسكونة وعلى الخصوص حيث تخشى تقدم النفوذ الفرنساوى.

ولقد بقى الاسلام سليما على التمام فى الجزائر الا ان المسلم لاحظ كونه محكوماً بمن لا يعتقد بدينه فاخفى فى نفسه مايضمره له من البغض والاحتقار ولولا ان قوماً من اصحاب الدين يحركون على الدوام فى قلبه عاطفة الايمان لصح الامل بضعف اسلامه مع مرور الايام ولاولئك القوم جمعيات سرية تعمل دائماً على تجديد الدين الاسلامى بين جميع الموحدين وعلى الخصوص بين الامم التى اخضعها المسيحيون

ومن المعلوم ان فتوح العرب وحكومة المغاربة فى اسبانيا بعده جمعت بين افريقيا وأوروبا زمناً طويلا ولكن انتهى الامر بان انزوى الاسلام الى مابعد بوغاز جبل طارق وانقطعت الصلة بين القارتين بطرد المغاربة سنة ١٦٠٩ وشخص الناس الى بلاد الغرب كانها ملجأ للقرآن منيع لاتصل اليه الاطماع وارض بعيدة عن الاختلاط بالمسيحيين واعتقدوا بان الدين الاسلامى يصير كأنه فى بلاد عرب جديدة يزاوله الناس على صفائه القديم فلما فتحت فرانسا بلاد الجزائر انتهكت حرمة الاسلام ورجعت الصلات ثانية بين افريقيا الاسلامية وأوروبا المسيحية وانفتح الباب فى ممالك الغرب الى عدو أشد وقعاً على القرآن من الجنود المجندة وهو التمدن الحالى ففطن المسلمون الى ما أحدق بهم من الاخطار وارادوا تمكين الجامعة وتوحيد الروابط بينهم وهى عند المسلمين أشد قوة منها لدى غيرهم من الامم التى

تدين بدين واحد لان القرآن شريعة دينية وقانون مدني وسياسي ومن ذلك وجدت حركة في النفوس غايتها مقاومة النصرانية بجميع الوسائل الممكنة وعلى الخصوص مغالبة التمدن الجديد باسم الايمان قال القائد (رين) وتأتي قوة هذه الحركة الاسلامية من تعدد الطوائف الدينية التي وجدت من أول هذا القرن وعظم شأنها في جميع الانحاء وصار لها تأثير شديد في قلوب الناس ولهم رسل ومريدون يطوفون البلاد الاسلامية التي لا حد لها وغير الاسلامية كمبشرين أو مستعطين أو قاصدين للحج ويصلون بهذه الكيفية بين الاقطار من مكة الى جغبوب الى القسطنطينية وبغداد الى فاس وتنبكتو الى القاهرة الى الخرطوم الى زنجبار ثم كلكتا وجاوه ومنهم التاجر والمنجم وطالب العلم والطبيب والصانع والشحاذ والسائل والمشعوذ والمتشرد والمجذوب تصنعاً أو المأخوذ على غير شعور منه برسالته وكلهم يلاقون صدوراً رحبة ومنزلة كريمة بين المؤمنين الذين يحمونهم من النوازل ويدرؤن عنهم تهجم الحكومات

ونحن لا نريد أن نأتي على تاريخ تلك الطوائف الدينية المنتشرة في الاسلام كما فعل القائد (رين) بل نكتفي بالاشارة الى سبب نراه العلة في انتشار هذه الجمعيات في أيامنا وبعد ذلك نبين المقصد الذي يرمون اليه في الجزائر

فاما المشايخ المعروفون عند المسلمين فلا تاثير لهم عليهم لان العبادة ذهنية أو هي قلبية فلا تحتاج اقوام كما انها لا تحتاج لمساجد أو جوامع ومن أعجب العجب انه لا درجات في تلك الجمعية مع انها دينية صرفة فلا يعرف

الناس الا رئيساً واحداً هو الامام أى خليفة النبي فاليه مرجع السلطتين الدينية والسياسية ومن هنا يسهل على المتأمل معرفة الاضطراب العظيم الذى حصل فى المسلمين من فتوحات المسيحيين ودخول التمدن الاورباوى فى بلادهم لان نتيجة ذلك ضياع السلطة الوحيدة التى يخضع لها الاسلام اذ لم يعد يوجد الآن امام عام للموحدين نعم ان سلطان القسطنطينية يعتبر نفسه خليفة الرسول ويتسمى باسم شيخ الاسلام الا ان هذا اللقب فى اسناده اليه لقب تشريف ليس الا غير معترف به فى الولايات الخارجة عن حكمه والدول الاورباوية أفرغت جهدها فى تحقيره بعوامل التأثير والتذليل التى الجأت الباب العالى اليها فلو لم تقم تلك الجمعيات بحفظ الروابط بين جميع المسلمين وجمعهم فى صعيد واحد لاصبح المسلمون كقطيع عظيم من الماشية بدون راعٍ ومن هنا تعلم ان كثرة الطوائف الدينية فى الاسلام وكثرة المريدين فيها فى هذه الايام ضرورة اقتضاها التكاتف على حفظ الدين والتوازر على صيانة الجامعة بين المسلمين

وقد كانت هذه الضرورة أشد فى الجزائر منها فى غيرها من البلدان فان الفرنساويين أوجدوا فيها جمعية روحانية اسلامية رسمية لمقصد لم يدم الا كما يدوم الخيال هو التأثير على الاهالى بواسطة الدين ورتبوا لاعضائها مرتبات يتقاضونها من الحكومة فكانوا شننة فى أعين المسلمين ولو انهم بقوا اتوصلوا فى الغالب الى استمالة بعض الاهالى ولكن الطوائف الدينية الحرة قاومتهم واسقطت مقامهم بين الناس ونجحت فى مقصدها تماماً وليس اليوم من كلمة تطاع الا اذا كانت صادرة عن أحد رؤساء تلك الطوائف

وأولئك الرؤساء يميلون على الدوام الى الزهد والتقشف ولهم تعبير فى القول لايفهم عمال الحكومة منه شيئاً اذا عثروا على بعض الفاظه فهم يدعون الناس تحت طيّ هذا الطلسم الى مقاومة التقدم ومغالبة التمدن باقصى المجهود ذلك انهم آمنون من جهة تنصر المسلمين فهو أمر معدوم كما قدمنا ولذلك اجمعوا أمرهم على مقاومة سير التمدن لكونه ربما أدى الى فتور فى الاعتقاد عندهم وهم الذين يحيون روح احتقار النصرانية فى النفوس ويجعلون اجتهادنا فى تأليف أهل الجزائر واستمالتهم الينا يذهب هباء منثوراً

ومع انتشار الطوائف الاسلامية في الجزائر وقوة تأثيرها فانها لم تتمكن من منع تغيير الاهالى من حيث هيئتهم الاجتماعية تغيراً محسوساً والعامل فى هذا هو الاحتلال الفرنساوى كما أشار اليه موسيو (شاتليه) حيث قال تنقسم أهالى الجزائر الى ثلاثة أقسام فمنهم الرعاة الرحل وأصلهم من العرب ومنهم الريفيون أصحاب الزراعة واغلبهم ينتمون الى القبائل ومنهم اخلاط المغاربة ومنهم المدنيون وهم التجار والصناع وقد حصلوا على شىء من المعرفة الصناعية وأصلهم مختلط منهم من المغاربة الذين اختلطوا بالاتراك وامتزج فيهم ايضا دم العرب والقبائل اهـ

ويختلف تأثير التمدن فى الجزائر باختلاف هذه الطبقات الثلاث ولكنه احدث فى كل قسم منها ميلا الى حالة مدنية جديدة فقد خفف الرحل روحاتهم وجياتهم وصاروا نصف رحل وبعضهم مال الى زراعة الاراضى الخصبة فى مرتفع الوديان ومنخفضات الصحراء وتدرج سكان الارياف الى التخلق باخلاق المدنيين وأما هؤلاء فقد تأثروا كثيراً لاختلاطهم

باصحاب المعاملات التجارية ومعاشرتهم لاصحاب الصناعة الاوروباوية وتعودهم على الاخذ والعطاء مع أهالى البلادالغربية وكثيراً ماأخذ العربى الذى يسكن المدائن عن التمدن الاوروبى رذائله ومعائبه وخالف أوامر القرآن وشرب المسكرات وهو فى الغالب مفرطاً فى تعاطيها وأكل الاطعمة المحرمه الا لحم الخنزير فهو ينفر منه باصل فطرته ومع ذلك فهو لايزال يحافظ تمام المحافظه على بعض أوامر الكتاب كصوم رمضان حتى ان الباغيات يصمن فى اماكن فحشهن

ومع ذلك كله فان عوامل التمدن لم تتمكن من اضعاف الاعتقاد فى قلب المسلم وان زحزحته قليلاعن المحافظه على جميع اوامر القرآن بل لايزال الايمان عندهم تاماً كاملا خلافا لمايراه موسيو (شاتليه) فانه يحسب ان عددالمسلمين الذين لايؤمنون ولا يقيمون الفروض يزداد كل يوم فى مدائن الجزائر وعندنا ان هذا القول صحيح بالنظر لترك الواجبات ولكنا نراه مخالفاً للواقع من جهة ضعف الاعتقادات فما من مسلم صار غير مقيد فى الاعتقاد بل يجوز انه أهمل جميع الواجبات ولكن اعتقاده لم يتحول وصحيح فى الاسلام ان يبقى الرجل مسلما وهو لايعمل بما يمليه عليه القرآن

ولعمرى لست أدرى ان كان هذا التغيير على نحو ماشرحناه عنوان تقدم فى اهل الجزائر وانه رفع من أخلاقهم وزاد فى رغد عيشهم وعلى الخصوص قال من بغضهم للمسيحيين . أنا لاأظن ذلك فانى وان سلمت بان بعض قبائل البدو الرحل مالوا الى الزراعة ولكنى لاأرى فى انتقالهم من البداوة الى الزراعة ومن الزراعة الى سكنى المدن

والامصار موجباً لتهذيب الاخلاق ورفع درجة الآداب لان معيشة القبائل على حالتهم الفطرية مهما كان فيها من النقص هى أشد احتفاظاً على الاخلاق واعظم باعث على التمسك باصول الادب فليس من سلام على النفوس الا معيشة الرجل بين اهله بعيداً عن المدن وما حوته فالمعيشة فى الصحراء ناشفة يابسة ولكن ما ضمته الخيام ليس عرضة للتبدد والضياع اما اذا سكن العربى فى المدينة خصوصاً المدن الاوروباوية فانه يكون على مقربة من دواعى اللهو وتزداد حاجاته ويطلب القهوة والحلوى وتميل امرأته الى الملابس القطنية ويده لا تقوى على سد هذه المطالب كلها فيعيش فى ضجر مادى ينشأ عنه ألم ادبى ولقد شوهد كثيراً ان الضنك يشتد على القبائل بقدر تقربها من المدن الاوروباوية فاول القبائل التى خضعت لحكم الفاتحين واختلطت باقوامهم كانت اول القبائل التى لحقها الدمار وابادها الاندثار وانحطاط المدنى ادبياً هو السبب فى احتقاره من ساكن البادية اكثر من حالته السيئة التى يعيش فيها . وليس لفرنسا ثمرة تجنيها من انحطاط رعاياها المسلمين فى الجزائر ادبياً ومادياً ولهذا نرى الحكومة بحثت عن مداواة هذا الداء وارادت تهذيبهم فاوجدت التعليم الفرنساوى عندهم وانشأت مدارس للتعليم الابتدائى واخرى للتعليم الثانوى ومدارس للصنائع ولكنها ما كانت لتنجح فى هذا المسعى لانه مهما حسنت نوايا المسيحيين لا يأمنون من حبوط مساعيهم فى تمدين الاهالى وان شئت قل ان كل امر يأتى على ايديهم ممقوت ومرذول لذلك كان التعليم الفرنساوى معيباً من الاصل ولم ينجح فى شىء حتى ولم يقلل من نفور الاهالى نحونا

واليك ما قاله أحد اعضاء جمعية التعليم موسيو (شارفريا) في هذا المعنى (اذا اردت ان تعرف مقدار بغض الاهالي لنا فانظر الى درجة تعليمهم الفرنساوى فكلما زاد تعليمهم وجب الحذر منهم) وقد مكثت زمنا طويلا أقاوم هذه الحقيقة التي توجب اليأس وتقطع الرجاء ولم ارجع عن رأيي الا لما رأيت جميع من شاورتهم فيها متفقين على تقريرها)

وقد قال حاكم الجزائر نفسه موسيو (ترمان) في مجلس الادارة الاعلى سنة ١٨٨٦ (لقد دلتنا التجارب على ان اكثر الناس عداء لنا هم اولئك الذين علمناهم كثيراً) على ان الحكومة نفسها قد اعترفت بعجزها عن تحويل الجزائريين الى فرنسويين بواسطة التعليم الفرنسوى ولم تتمكن من احياء التعليم العربي وان اكثرت من فتح المدارس كما ان جميع الصنائع والحرف الاهليه قد اندثرت على مقربة من مدارسها الصناعية والفنية التي أنشأتها. والذى نستنتجه من هذه التجارب التي لم تجد نفعاً هو ان مسئلة التقريب بين العنصرين الاوروبي والاهلي لا يمكن حلها بمعرفة الحكومة لان يد الادارة يد ثقيلة لا تصلح لعمل لطيف مثل هذا وحدة الموظفين مانعة من التبصر فلا صبر لهم على انتظار الثمرة الصغيرة زمناً مديداً وبالجملة فان كل وسيلة تتخذ في سبيل التقريب الذى نبحث فيه رديئة نعم قد يمحو الدهر بعض المتناقضات ويولد بعض المتشابهات ولكن لن يحصل اتحاد تام بين العنصرين مدى الابد وكم من أوهام توهمها الناس في مسئلة الجزائر يضحكنا اليوم تذكار بعضها كالذى تخيله موسيو (دولانجل) أيام كتب تقريره على مشروع استشارة الامة سنة ١٨٦٥ حيث ذكر فيه هذه الجملة (ولم يبق الا

زمن يسير حتى تفتخر الامة التي بلغت عواطف الشرف فيها الدرجة القصوى بالاشتراك فى أعمال الامة الفرنساوية التي لها في العالمين مقام رفيع) ومن الخيال أيضاً ماذهب اليه موسيو (لوروا بوليو) من أمكان التوصل لجعل العرب رعية صادقة من الخلصين فى الولاء فستغرب ان يفكر اولئك القوم فى رجاء هذه الفوائد من الجزائر وفي ان يصل أهلوها الى تقرب يحملهم يوماً من الايام على حب الوطن الفرنساوى ولو صحّ هذا لكان أمراً خارقا للعادة لم يسبق له مثيل فى التاريخ فانا نعلم ان اختلاط العنصرين ببعضهما دام تسعة قرون في بلاد الاندلس من سنة ٧١٠ الى سنة ١٦٠٠ ولم نشاهد مع ذلك ان وطن الغالب صار وطناً للمغلوب ومع ذلك فالوهم عندنا متسلط فى ان نطالب الجزائريين بما نطالب به الفرنساويين من الولاء والاخلاص

اتفق سنة ١٨٨١ انه فى مبدأ ثورة ابى عمامة قام احد القواد وكان من أشدهم موالاة لنا وتوجه برجاله الى جنوب ولاية حوران لقتال المنشقين فلما رجع علم بان قبيلة خرجت عن الطاعة ورفعت خيامها ورحلت بنسائها وأولادها وماشيتها فذهب الى مراكش فى طلبها وعاد بها بعد سنة من الزمان واقنعها بوجوب الطاعة والخضوع فاحيل الى المحاكمة أمام مجلس عسكرى بحجة انه خان الدولة الفرنسوية . وفى الواقع انه لم يخلص لنا الود اذ كان يلزمه على رأيهم ان يترك لنا عائلته وأملاكه ولكنا نعلم ان كثيراً من الفرنساويين لا يودون ان يكون مثل هذا الطلب محكا لوطنيتهم ومعياراً لمعرفة صدقهم لبلادهم

ولسنا نود ذكر جميع الخيالات التى تصورها الباحثون فى طريقة

التقريب لان ذلك شرح يطول فمنهم من ذهبت به الاحلام الى تصور الجزائر آهلة بعرب يلبسون القبعة ويلتفحون السترة الصغيرة (جكيته) وقد نسوا لغة الوحي المقدسة وجعلوا يرتلون القرآن بلغة الفرنساويين نقلا عن ترجمة (كزيميرسكي) . ورأينا ان البون يبقى شاسعاً بين المسلم والمسيحي وان من السعود ان تقرب الشقة بين الاوربي والعربي وان هذا التقرب يحصل من نفسه وهو ينشأ من التجاء المستعمرين الفرنساويين الى العرب في حرث الارض وغرسها ولو ان المستعمرين يعاملون العرب برفق ولين ويقسطون معهم لافادوا في هذا السبيل أكثر مما أفادت اللوائح والقوانين اذ لست ادرى لم ان الرجل منهم يكون في باريس من الاحرار المتطرفين فاذا جاء الجزائر نزعت نفسه الى احياء أشد الازمان في حكم الشرفاء تعسفاً واجحافاً وعندى ان أليق الناس بالعمل المطلوب هم المرسلون لا الكاثوليك فلا تترقى الاهالى في معارج المدنية مع بقائهم على دينهم الا بهم نعم ان الترقى يكون بطيئاً ولكنه يصح أن يسمى تقدما ودليلنا على ما نقول حالة القبائل التى توطنها المرسلون فانهم توصلوا مع أهلها الى درجة عظمى

مضى على الاسلام في الجزائر نصف قرن لم يؤثر فيه الاحتلال الفرنساوى كذلك تفانت امواج التمدن الاوروباوى تحت أقدام مقاومة الطوائف الدينية في تلك البلاد ولو ان تلك الطوائف تعرف من نفسها اقتداراً على قذفنا في البحر لتتيم بعدنا مملكة اسلامية جامعة (أى بين السلطة الدينية والسلطة السياسية) لاقتحمت الاخطار وقلبت الحكومة المسيحية ولكنهم يرون الفرض بعيد المنال فهم يقصرون مساعيهم على احياء

روح البغضاء فى نفوس تابعيهم مما يكفى لتزكيته غالباً تلاوة بعض الجمل التى ملئت سخطاً على النصارى على ان جميع رؤساء الطوائف المذكورة ليسوا واحداً فى مقاومة التمدن الغربى بل يحذو بعضهم حذو من يضع الشرع ليتقيد به غيره ويستفيد من مكتشفات ذلك التمدن التى حرموها على المرابطين وا كبر الطوائف واشدها تمسكا بمبدئها هى طائفة السنوسية وهى التى يخشى منها اكثر من غيرها ولها شيخ ذو دهاء ينظر اليه البعض كجامع وحدة الاسلام وهو رجل رأى انه يضعف عن مقاومة الحكومة الفرنساوية فى الجزائر مقاومة صريحة فعدل عن فتح الجزائر الى فتح أرض غيرها للاسلام وعلم سيدى السنوسى ما أحزن المسلمين من حكم المسيحيين كما علم موسى الذى نجاه الله ما أُصاب قومه من فرعون وأراد خلاصهم من يد الكفار وان يقودهم من دار الحرب الى دار السلام فناداهم ان اخرجوا من دياركم ان ارض الله واسعة الفضاء وانتقل الى أرض فسيحة الجوانب خالية من السكان فلحق به كل مسلم لايرى له بقاء مع المسيحيين ويود الهرب من معاشرة الكافرين ولكن ليس فى تلك الارض عسل يجرى ولاضرع يدرّ كما كان فى بلاد الكنعانيين بل هى صحراء ليبيا الشاسعة التى اختارها السنوسى ليهجر العرب اليها بلاد الجزائر وتونس وطرابلس ومصر والبوسفور ذى الرياض والمناظر ومع ذلك فالنداء يلبى كل يوم من جميع بلاد الاسلام ويقيم الواردون فى تلك الرمال من غير سخط ولا ضجر كما ترك بنو اسرائيل مصر فى غابر الازمان وما منهم من يأسف على الكسكسو الذى كان يأكله بنهمة تحت حكم الذى كفر وقد أخذت الصحراء

تتحوّل باعمال المهاجرين ففيها اليوم آبار ونخيل ومثلهم في ذلك مثل قبائل العباديين الذين هاجروا الى (مازاب) في الصحراء وعمروها

وفي اجتماع المسلمين الذين لم يرضهم حكمنا حول جغبوب خطر أشار اليه وكلاؤنا في طرابلس ومن الواجب على الدول الاوروباوية ان تأخذ حذرها منه اما الجزائر فهي ترى فيهم عدواً لها وما دام الامر بالنظر اليها دائراً بين عدوين فهي تفضل بعد أولئك القوم لانها تكون ببعدهم عنها آمنة مطمئنة من اعمال قوم متعصبين . ومع هذا لو قدر لفرنسا انها احتاجت في احد حروبها الاوروبية الى الاستعانة بجيوشها الافريقية وانتهزت احدى الدول ضعفها في افريقيا فحركت ضد حكومة المسيحيين طائفة السنوسي والطوائف الاخرى فانه يخشى من حدوث ثورة تسوء عقباها في الجزائر ولكنا نرى في هذه الحالة وهي اسوأ حال يمكن تصورها بالنسبة الى الحكومة الفرنساوية ان انشقاق الرؤساء واحقاد الطوائف تمنع الثورة من ان تمتد الى جميع ارجاء البلاد فالفوضى علة الاسلام الباطنية وهي ايضاً في الغالب علة الضعف عند جميع ولد سام فان اسماعيل يضرب خيامه على الدوام تجاه مضارب اخوته ولولا الانقسام الداخلي والاضطرابات التي حدثت بين المسلمين في غابر الازمان لما نجت النصرانية. وهذه الاسباب نفسها تضعف العزيمة عن القيام بتوحيد كلمة الاسلام ولولاها لما حفظت فرنسا املاكها مع ما ارتكبته من الخطأ وما تأتيه من الاغلاط في افريقيا الشمالية وهي املاك ستبلغ بمقتضى النمو الطبيعي عما قليل عشرين مليوناً من المسلمين

والخلاصة انه لا يخشى من ثورة عامة في الجزائر ولكن لا تزال تلك البلاد معرضة للقلاقل الثانوية وتنشأ هذه الاضطرابات بغير المؤثرات الدينية فكثيراً ما تثور القبائل من نفسها ورغماً عن نصائح الرؤساء ومشائخ الطرق لأنهم واقفون تمام الوقوف على ما نحن عليه من الاقتدار في كبح جماحهم ولذلك فهم لا يرمون الى حركة عاقبتها وبال عليهم وعلى التابعين لطوائفهم بل ان اكبر اسباب الثورة في الجنوب رغبة رؤساء القبائل في استرجاع امتيازاتهم لأنهم من بقايا اولئك القوم الذين سادوا قديماً في البلاد وفي جهة التل ضنك الاهالي وخطأ الموظفين في اجراء مقتضى بعض اللوائح والقوانين ومع ذلك كله فانا نرى ان كل ثورة بدأت لا تلبث ان يعزوها اصحابها الى مصدر ديني فينادون بالحرب المقدسة كما ينادون باحد الرؤساء الدينيين ذوى النفوذ قائداً عاماً لحركتهم وان عارض وابى . ومن عادة تلك الحركات انها تبدأ قليلة الاهمية ولكنها تعظم ويكبر شرها بخطأ الموكلين في اخمادها ولو ان الحكومة لاحظت جانب العدل والحكمة في ادارة الاهالي والغت الامتيازات القديمة التي لرؤساء القبائل تماماً واختطت السكك الحديدية في جنوب البلاد وأصلحت من نظام الجيش لقلت حركات الثورة في بلاد الجزائر وهدأ المسلمون من شواطئ البحر الابيض المتوسط الى شواطئ نهر النيجر

﴿ خاتمة ﴾

والذى نستخلصه مما تقدم انه يجب على الدول الاوروباوية التى تميل الى التوسع فى الاستعمار ان تتعرف ديانة رعاياها أو أصدقائها المسلمين كما ينبغى اذ الدول لاتزال حتى الساعة على اعتقادها الذى كانت عليه أيام القرون الوسطى وهو ان الاسـلام صورة من صور الديانة الوثنية اللهم الا نفراً قليلا من المستشرقين الذين لاتأثير لارائهم فى السياسة مع انه لو جاز عقلا ان ترتب الديانات التى دانت بها المخلوقات لوجب جعل الاسلام اولها بعد ديانة التثليث لانها أى الديانة المسيحية بلا شك ارفع منه من جهة المعقولات فلا يجوز للمسيحيين ان يرموا الاسلام بالوثنية على ما بينه وبين النصرانيـة من جهات الاتفاق حتى صح (لخناماسين) ان يقول انه بدعة مسيحية نعم لا يقول المسلمون بالوهية ابن مريم ولكنهم يجلونه كاكبر الانبياء (اذ قال الله يا عيسى انى متـوفيك ورافعـك الىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيـامة) ويعترفون بأن مولده من المعجزات (واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فاتخذت من دونهم حجاباً فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقياً قال انما أنا رسول ربك لاهب لك غلاماً زكياً قالت انى يكون لى غلامٌ ولم يمسسنى بشرٌ ولم أكُ بغياً قال كذلك قال ربك هو علىّ هيّنٌ ولنجعله آية للناس ورحمـة منا وكان أمراً مقضياً فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً فاجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت

ياليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نسياً منسيا فناداها من تحتها أن لا تحزنى قد جعل ربكِ تحتكِ سرياً وهزّى اليكِ بجذع النخلة تساقط عليكِ رُطباً جنياً فكلى واشربى وقرّى عينا فاما ترين من البشر احداً فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسياً فاتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فرياً ياأخت هرون ما كان أبوك امرأسوء وما كانت امك بغياً فاشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً قال انى عبد الله آتانىَ الكتاب وجعلنى نبياً وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ما كان لله ان يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون) كذلك يعتقدون ان جبريل هو الملاك الذى نزل بهذه البشرى كما انه هو صاحب الوحى بالقرآن ويكرهون اليهود لانهم اضطهدوا المسيح وأرادوا ان يقتلوه ولا يعتقدون بموته كما تدل عليه آية (وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّهَ لهم وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيما) وقد التفت الامير عبد القادر الجزائرى الى ما يوجد بين الدينين من التقارب فخال له امكان التوفيق بينهما وكان من ذوى المدارك السامية قال لو اصغى الىّ المسلمون والمسيحيون لأزلت من بينهم موجبات التنافر ولأصبحوا اخواناً فى الظاهر والباطن وكان يشبه الانبياء الثلاثة الذين قالوا بوحدة واجب الوجود بثلاثة

أخوة من أمهات متفرقة (راجع كتابه نداء الغافلين) ولكنا لانمنى النفس بتحقيق ما خطر ببال ذاك الامير فان الاحقاد التى تتولد بين اعضاء العائلة هى التى لا مرد لها والتشابه بين بعض القواعد لايسد ذلك الخرق العظيم الذى انفرج بين المسيحيين والمسلمين فقد يجوز ان يقلع المسيحيون عن تجهلهم للاسلام ويعترفون بانه دين قريب من دينهم ولكن المسلمين لن يقبلوا ان يكون معنى التثليث غير تعدد الآلهة ولا يعتقدون بان خطأ آدم هو رأس خطايا بنيه وانه السبب فى ذنوبهم ولا يقولون بان المسيح تجسم فى صورة الانسان ولا بانه افتدى النوع البشرى بنفسه ويقول جميع علماء التوحيد عندهم أن جعل المسيح ابن الله لا فائدة فيه ان كان الوالد والولد الهاً واحداً ومتناقض ان كان كل إلهاً قائماً بذاته على ان علماء اللاهوت من المسيحيين مختلفون فيما اذا كان التجسم يحصل لولا خطيئة آدم . كذلك لاينبغى لنا ان نعلق الآمال بالوصول الى تحول رعايانا المسلمين فى الجزائر الى فرنساويين بل يجب علينا أن نجتهد فى ان نعيش معهم على ما يلزم من المسالمة والموادعة وهو حل سهل بسيط لست ادرى لم اهمله الباحثون وقل الاقبال عليه كما اننى لم أقف على السبب الذى دعاهم الى الحكم بانه ليس لمسلم الجزائر الا ان يتحول أو أن يفنى وفى الواقع أن الفرنساويين يفرحون بالتحول لكونه يلائم ميلهم الى ايجاد الوحدة فى كل شىء فكل موظف من الفرنساويين يحلم ان تصير مدينة الجزائر مثل باريس مع ما هى عليه من اختلاف ارضها ومناخها وسكانها ولذا اعتادوا على ان يعدوا من التقدم صيرورة بعض القرى مختلطة وتحولها بعد ذلك الى بلاد لافرق بينها

وبين البلاد فى فرنسا وهى ملاحظات تافهة تمنع الناس من الوقوف على حاجات الجزائر الحقيقية اما منح الجنسية الفرنساوية للاهالى فانه لا يفيد الا فى بعض الشؤون الادارية المحضة ذلك لانه يوجب بعض تغيير فى الصورة ويسمح للتقارير الرسمية بتجسيم الاعداد ولكنه لا يجعل الجزائرين وطنيين فرنساويين ومع ان معاهدة الجزائر لا تسمح لنا بايجاد جنسيتنا عليهم فنحن لا نفتأ نعرضها كانها امتياز يختص به قوم دون آخرين وكاننا نظن ان المسلمين يعتبرون من الامتيازات مايحول بينهم وبين العمل بمقتضى دياناتهم ومع هذا يرى موسيو (روسل) ان فى تجنيس الجزائريين بالجنسية الفرنساوية حلاً للمسألة وان الاختلاط يحصل مع الزمن فيتحول السواد الاعظم حتى يصير فرنساوياً وتضيق البلاد على من يخرج عن الجمهور لتغيرها وتحوّل نزعات الاهالى فيضطرون الى الهجرة جنوباً ويخلفهم قوم آخرون أرفع شاناً وأعلا مكاناً وعندى ان هجرة القبائل الى الصحراء جنوباً وهم باطل كالقول بامكان مضايقة الجزائريين فينزحون عن البلاد رويداً رويداً اما انقراض الاهالى شيئاً فشيئاً كلما دخل التمدن الاوروبى بلادهم فنحن لا نصدقه إلا قليلا لان احتكاكهم بالمتمدنين ربما قلل من وسائل العيش لديهم ولكنه لا يؤثر فى وجودهم بل لا يزالون يتناسلون أكثر من الاوروبيين ونضيف على ذلك ان المسكرات التى استعملها الاورباويون للتعجيل على وجود بعض الامم المغايرة لهم لا تؤثر عند أهالى الجزائر لكونهم يمقتونها مقتاً شديداً

اذن وجب علينا ان نعيش فى الجزائر بجانب سكانها وفاتحيها الاقدمين

وان نقلع عن التطلع الى التحويل أو التجنيس فكلاهما وهمٌ وخيال ولا خوف من هذا بل الخوف يأتينا اذا أوجبنا عليهم التجنس بجنسيتنا فنالوا مالنا من الحقوق السياسية . ولو تنزل حكامنا الى تعرف امة الجزائر التي يجهلونها أو يعرفونها على غير الواقع وعملوا على مرضاتها ببعض ماتميل اليه وتخفيف شيء من أثقالها لانتفى الخوف منها وزال خطرها وتصير أعظم مساعد على الاستعمار ولرب معترض يقول ان تلك سياسة مبهمة فنجيب بانها كذلك وهو مقصود لان السياسة المرتبة على قواعد ثابتة وأصول معروفة من قبل أضرت بالجزائر أكثر من سياسة التجارب بحسب الظروف والاحوال غير انه يجب مع ذلك ان تبنى السياسة المطلوبة على مبدأ واحد يتخذ أساساً لها وهو أن تكون مضادة لليهود على خط مستقيم ففي ذلك ضمان السلام والامن فى تلك البلاد لان ما أتاه موسيو (كرميو) من جعل اليهود كلهم فى الجزائر رعايا فرنساويين كان شؤماً على الدوام وما شؤمه آت من ان العرب اشمأزت لحصول اليهود على مالم يحصلوا هم عليه كما ذهب البعض بل هو آت من ان ذلك العمل أوجب اطلاق السراح لقوم يرى العرب انه كان من الواجب بقاؤهم تحت سيطرتهم وخالف ما فى نفوسهم من عظيم الاحتقار لليهود ومكن هؤلاء من الانتقام على ما أصابهم من المسكنة فى سالف الازمان اما العرب فهم يأنفون من التجنس بالجنسية الفرنساوية لكون ذلك يلجئهم الى ترك دينهم كما قلنا ولكنهم يبغضوننا لانا منحنا هذا الامتياز لاناس اعتادوا أن يروهم دون اقدامهم وقد وصل تغطرس اليهود اليوم ان لم نقل وقاحتهم الى حد فى

الجزائر بحيث صار الخصام قريباً بين الفريقين فالمسلمون لا يطيقون احتمال ما احتمله المسيحيون وقد ازفت الساعة التي يقومون فيها جمعاء ليعيدوا بني اسرائيل الى ما كانوا فيه من الخضوع والامتهان ويكون الوقت قد فات لارجاع اليهود الى ملتهم وقد لا يسلم المسيحيون من محن الجزائر

ولقد نستخلص من ابحاثنا هذه أمراً آخر بالنظر الى سياستنا في افريقيا الوسطى وهو أمر سهل النوال ذلك اننا لا نشير على فرانسا بالتحالف مع المسلمين وان كانت هذه هي السياسة التي رآها فرنسوا الاول ولكننا نرى انه يجب عليها معاملة الاسلام في افريقيا بما يسعها من المحاسنة والتجمل فقد رأينا قبائل الفولبوسيين والخواصة اوصلوا نفوذهم الى تلك الاقطار الشاسعة التي تكتنف املاكنا في الكونغو فساروا سيراً متتابعاً من شادوا الى خط الاستواء وادخلوا الاسلام اينما حلوا ومن الصعب علينا ان لم نقل من المستحيل ان نوقف تيار هذه الحركة العظيمة فلنجتهد في الانتفاع منها بقدر الامكان ولنمتنع من التداخل فيما يحصل بين الأمم الاسلامية والوثنية من الانحلال والتكوين بل علينا ان نراقب هذه المطامع بين تلك الشعوب ولنترك الفولبوسيين يختطون من البربر ممالك على النسق الفطري القديم ولنحذو حذو سلاطين المسلمين فنضيف حمايتنا الى حمايتهم على أولئك القوم المنحطين ولنحذر على الخصوص من الوقوع في خطأ سياسة الاستعمار وهو اعتبار دائرة النفوذ مجالا للكسب والاعمال ولو عارض قوم بانه لا ينبغي ان يكون هذا شأن فرانسا المسيحية وانه يجب عليها ان تمانع جهدها انتشار الاسلام حول املاكها في افريقيا لتحصنت في الرد عليه برأي

الكاردينال (هرجوتر) وهو ان تاريخ الكنيسة يعتبر ان فناء الامم الوثنية في الامم الاسلامية من المقاصد الالهية المحتمة قال الكاردينال (على الاسلام ان يهيء الأمم العريقة في الهمجية واخصها الامم الافريقية الى التمدن فانها بما فطرت عليه من الانحطاط في الادراك وما تعودته من الشهوات محتاجة الى التحول عن الوثنية الى الاسلام ليتسنى تحويلها من الاسلام الى النصرانية لكن أنى لنا في الوصول الى نقل تلك الامم من القرآن الى الانجيل وكيف يمكن ان يصير الوثنيون عباداً للمسيح بعد اعتناق الاسلام وهو الدين الذي يتمكن من القلوب فلا يفارقها هنا يختلط علينا المقصد الالهي فلا ندرك مرماه على انه لو لم يكن للاسلام من فائدة الا تحويل عبدة الاصنام من وثنيين الى موحدين وترقية اخلاقهم وملكاتهم لكفى بذلك داعياً الى معاملته بسياسة التلطف والاعتدال جرياً على قاعدة العمل بأخف الضررين

ملحقات

الملحق الاول

افكار المسيحيين فى القرون الوسطى بالنسبة للنبي والدين الاسلامى

لو اردنا ان نكتب كل شيء فى هذا الموضوع لوجب ان ننشيء بابا مطولا حتى نستوفيه حقه لانه مع اهميته لم يلتفت اليه أحد من الكتاب واذا قارنا بين ما كتبه كل فريق منشوراً فى الكتب وماقاله الفريق الآخر يمكننا ان نفهم السبب فى ذلك التخيل الغريب الذى تخيله القصاصون بل والمؤرخون عن الدين الاسلامى فجميع ماتصوروه فى تلك الاعصر يشتمل على بعض الافكار وان ظهر لنا انه خال عن المعنى

وذهب موسيو (بيجونوا) الى ان السبب في كثرة الاقاصيص والحكايات الخرافية التى ابتدعت عن الهة المسلمين هو تشعب طوائف ذلك الدين وهو تعليل غير مقبول لان تلك الطوائف لم تغير مطلقا فى مبدأ القرآن وهو وحدانية الخالق وما كانت الا مذاهب لكل نظر مخصوص في بعض مسائل التوحيد والمعقولات كالبحث عن ذات الله وكون القرآن قديما أو حادثاً والاختيار فى الانسان وغيرها وهى مسائل لا يشتغل بها القصاصون والشعراء

ولست أريد ان أبين فى هذا الموضع ماكان الناس يعتقدون فيما نسبوه

الى المسلمين من التماثيل والاوثان مثل (ماهومد)(وابوللون)و(ترافاجان) و (نوران) و (مارجو) وغيرها وانما اردت ان أجمع بعض ما كتب فى تلك الازمان من المقتطفات التى يقف القارئ بواسطتها على أفكار اجدادنا فى الاسلام ونبيه وهى افكار من الغرابة بمكان حتى ان من لا يهمه مثل هذا الموضوع يرتاح لتلاوة هاتيك القصص والاشعار مما ينسى معه الموضوع الذى كتبت فيه

فمن تلك المقتطفات ماشاع فى جميع الازمان عند الفرنساويين حتى قبل الحروب الصليبية من ان النزاع بين النصرانية والوثنية (يشير الى الاسلام) يفضى الى حرب عجيب فى بابه وقد جعلوا لذلك الحرب أشكالا متنوعة نتيجتها كلها استظهار المسيحي على الوثنى ووصفوا تلك الحروب باوصاف مختلفة تتناوب فيها الضربات وتنثنى الاجسام تحت السياط وتتبادل النبال ويحتدم القتال الى ان ينتهى بضربة عاتية وهجمة قاسية فينفذ السيف فى الاجسام وفى اثناء هذا الحرب العوان يتناقش الخصمان فى علم اللاهوت الاعلى وكل يقدم دليله الاقوى ويقابلان بين دين المسيح ودين محمد ويميل الواحد منهما الى اقناع الثانى بصحة دينه وصدق ايمانه ومن هذا القبيل ماجرى بين (غليوم دورانج) المسمى غليوم ذا الانف القصير و (قرصوط) المسلم صاحب الطول الهاشمى وهو بيت القصيد فى رواية تتويج الملك لويز وهو ايضاً قسم من قصة مطولة يقال لها قصة (غليوم دورانج) وتحتوى على ثمانية عشر فرعاً وعدد ابياتها مائة وسبعة عشر الفاً وثلاثمائة وفيها وصف المسلمين واخلاقهم ودينهم

ذكر صاحبها ان الملك شارلمان ارسل غليوم فى امر الى البابا فذهب الى رومه فى اربعين فارساً وبينما هو يزور قبر القديس بطرس القريب من قبر (نيرون) وهو أحد آلهة المسلمين فى بعض القصص انتشر خبر قدوم المسلمين بعد انتصارهم فى (١ يوليه) فحزن الناس اجمعون وجمع البابا على عجل جيشاً اسلم قيادته الى غليوم وعما قليل اقبل جيش المسلمين حتى صار على ابواب المدينة فتقدم جيش غليوم نحوه واصطف الجيشان للطعان والضرب والنزال ثم تشاور الرؤساء فى أمرهم وقر قرارهم على ان يقتتل الرئيسان والفريقان يشهدان فمن غلب فجيشه الظافر وكان خصمه هو المكابر والكافر. هنالك برز الفارسان وسط الجموع وشخصت نحوهم الابصار وجعل الشاعر يقص ما كان من أمرهم بكلام يشغل الافكار ووصف يستوقف الابصار فاذ ارتعدت فرائص غليوم ضج المسيحيون وهاجوا وانهال البابا ونزل بقلبه الهلع الاكبر وصاح المسلمون باصوات الفرح والتهليل واذ اصاب قرصوط جرح من خصمه انقلب الفرح بكاء وتبدل الحزن ابتهاجاً قال وكان قرصوط لابساً درقة من الزرد متقلداً بالفولاذ مستعلياً ظهر جواد الله اكبر ما اعظمه واما غليوم فلم يشأ الشاعر ان يصف لنا لباسه وعدته بل ذهب الى ان البابا أحضر اليه أثراً من آثار الرسول بطرس وهو ذراع له محفوظ فى غمد ثمين ثم أخرجه من غمده وسلمه اليه فجعل يمس به جميع اعضاء جسمه الا نصف انفه ثم تقدم قرصوط نحو خصمه فلما رآه غليوم مقبلا ترجل عن جواده وجعل ينشد الاشعار ويقص التاريخ والاخبار الى ان وصل الى خلق الليل والنهار وكيف تكونت الارض والانهار وارتفعت

السموات عن البحار واستمر الشاعر يروى هذا الخبر حتى كتب ثمانين بيتاً من الاشعار ثم انتهى بالتضرع الى المسيح فقال له ان صح انك مت ثم حييت فاحفظ غليوم ولكن الهاشمى رأى الدعاء طويلا فسأل خصمه عن السبب وهنا لك رأى الناس العجب وصار كل ينادى بالويل والثبور ويستنزل فوق رأس عدوه عظائم الامور ثم طلب الى غليوم ان يعرف عن نفسه فاطال الجواب فى ذكر أسمائه والقابه وأسماء عائلته ونعوتها وفى بيان حروبهم وما فعلوا وانهم فتكوا بالمسلمين والسلافيين وختم جوابه بقوله فما بلغوا شأونا وما كانوا قط مثلنا فغضب فرصوط وحملق بعينه وحرك حاجبيه وحمل على خصمه بكلام طويل وقول ثقيل ثم جعل يمجد الله ويثنى عليه ويستنزل معونته ويكل الامر اليه وبعد ذلك اشتبك القتال وابتدأ الطعن والنزال وكلما كلت السواعد قامت قيامة الجدال وتوالت الحجج والشواهد وفي احدى هذه الفواصل جعل غليوم يبين لخصمه حقوق الملك شارلمان على (رومة) و (توسكان) و (كالابره) ويشرح له سيادة البابا السياسية ثم حمل عليه فرصوط فكاد ينزل به الموت الاحمر وانخلعت قلوب النصارى وضاعفوا الدعاء والابتهال ورفع البابا يديه الى السماء طالباً ان يعود غليوم الى رومة سالما غانماً فاشتد ساعد رجلهم وفوق الى فرصوط طعنة فى صدره فخرج السيف يلمع من ظهره قال الشاعر ولكنه ما برح مالكا لقواه ولو كانت الضربة فى غيره لاعدمته الحياة ولما أحس بالألم انحاز الى جهة وجعل يفكر فى النسك خط القلم وأما غليوم فرجع الى الدعاء والاستنجاد وعاد الى خلق البلاد والعباد وذكر المهدين بالتهديد والتقديم

ودخول عيسى أورشليم ونجاة يوحنا وتنصر بولس الرسول وتوبة (مادلين)
وبعد ذلك رجع البطلان يقتتلان فناول قرصوط خصمه ضربة بسيفه
البتار أطاحت نصف أنفه فغاب عن الابصار هنالك يئس النصارى واصبحوا
في أمرهم حيارى وسال البابا ربه أن يعين شجاعهم وان يجفف دموعهم وبينما
الناس يصيحون وبالدعاء الى الله يتضرعون اذ سكت الجميع لهول موقف
المتحاربين وقد حان الحين وزعق غراب البين وحمل الهاشمى على خصمه
وناوله الضربة فمال عنها وارتد اليه بمثلها أطاحت رأسه وسال الدمّ فسكن
العدو رمسه وصاح غليوم مستنصراً لقد أخذت بثار أنفي واحتاط به اهل
رومة وهنأوه وجاءه الاشراف من قومه ليسألوه عن صحته وسلامته

ومن المقتطفات قصة (فارس البجعة) ويقال انها اول قصائد
الحروب الصليبية وهي (لجنا رونو) الفها في القرن الثاني عشر ومدارها
على ان والدة (قربران) ملك أورشليم ذهبت الى القرشي محمد لتستطلع
الاخبار فنبأها بحضور الصليبيين وان أورشليم تقع في يد (جودفروا دبويون)
وقد نشرت هذه القصة أول مرة في بروكسل سنة ١٨٤٦

ومنها قصة الاسرى، وتعزى الى غليوم التاسع امير (بواتيه) الفها في
القرن الثاني عشر ومبناها ان (ريكار دوكومون) تقاتل مع رئيسين من
رؤساء المسلمين هما غلياس ومورغالي أي الامير خالد فقتل غلياس وجرح
مورغالي جرحا بليغا فاقر بانه غلب وطلب من ريكار ان يمهله ثم يجهز عليه
بقطع رأسه

﴿ قصة فتوح أورشليم ﴾

رأى جودفروا فى السهل كوكبة من الفرسان فانقض عليها فلما قرب منهم سألهم ان كانوا مسلمين أو نصارى قائلا ياهؤلاء أى القوم أنتم تؤمنون بالله العظيم ابن مريم قدس اسمها صاحب الشرف الاعلى شديد القوى أم تؤمنون بابوللون وماهون وترافاجان أولئك الاصنام قبحت سيرتهم الذين يعبدهم الاعجام . وجاء فيها ان اثنين من قواد المسلمين اسرا اثناء حصر المدينة فحاول جودفروا أن ينصرهما وان (صوقومان) سلطان المسلمين جرح جرحاً بليغاً فصار يستغيث بمحمد وابوللون

ومن القصص التى ملأت الاسماع فى كل زمان ان محمداً لمامات وضع فى صندوق وكانوا يعتقدون ان ذلك الصندوق من المغناطيس الاصلي وانه معلق بين الارض والسماء تحت قبة مغطاة بالحديد والامير يحرسه بمائة وخمسين الف فارس وان (صودان) يراد به السلطان أى ملك المسلمين طلب من الحبر بطرس ان يعتنق الاسلام والحبر اظهر انه يميل الى ترك النصرانية فامر القائد باحضار الصنم محمد ليسلم امامه وان جودفروا اسر أحد القواد وطلب منه ان يتنصر فابى وقال انه لايعبد إلهاً شنقته اليهود

﴿ قصة بودوان دوسبور ﴾

وهى من منشئات القرن الرابع عشر وفيها خروج الكونتس دى پونتيو وهى أول ماجاء فى قصة صلاح الدين وانها صارت زوجة له وولدت منه ولداً هو ذاك صلاح الدين الشهير الذى كان الطامة الكبرى على النصرانية وانها استولت عليه وصارت صاحبة الكلمة النافذة عنده بما اتخذته معه

من الحيلة والملاطفة وهي التي طلبت منه أن يسمح بحضور أخيها الكونت دي يونتيو وتعهدت له انها تحمله على ترك النصرانية فاجاب سؤلها وقد حكى الشاعر سفر الكونت طويلا

وأما صلاح الدين فذكره موجود في جميع أناشيد ذلك العصر بالفرنساوية واللاتينية وتراه في احدى الروايات يتناقش في الديانات واعظم عيب عاب به النصرانية عبادة البابا ومسئلة الاعتراف وفي رواية (جيل دوكوربيل) لولا ماشاهده صلاح الدين من اختلال حال القسس لاعتنق النصرانية وكتب طبيب الملك (فيليب اوغوست) هجوا مؤلماً في هذا الموضوع ضد القسس سماه الطب المقدس للقسس

« ومنها »

قصة شاعر ريس — يؤكد هذا الشاعر ان صلاح الدين اعتنق النصرانية في مرض موته وقص قصته طويلا وعزاها الى عم ذلك الملك

« ومنها »

قصة المرور في الارض المقدسة — وهي لعمانويل الكندى يقول فيها انه أقام أياما بمصر وفي بعض مدن الوثنيين الاخرى يعني المسلمين وخالطهم كثيراً وكان قومه يعتبرون رأيه في المسلمين ودينهم قال لما كانت الصدف تجمعني برجل منهم لم يكن ذا شر وضر كنت اتجاسر على سؤاله عن الاسلام وهلا نزل فيه شيء من التعاليم النفسية فكان يقول لي لم يأتنا بشيء من ذلك بل كله متعلق باللذة الجسمانية ولذلك يسمى بدين الجاموس والجمال وجميع الحيوانات الاخرى وقد حكى هذا المؤلف سبباً غريباً لتحريم

المشروبات الروحية فذكر ان محمداً خرج من مكة فى نفر من نصحائه الى المدينة وكان معه راهب يستشيره على الدوام فالراهب يميل به الى الديانة المسيحية واخصاؤه يميلون به الى الدين الاسلامى وكان النبي أكثر تعلقا بالراهب فغضبوا غضباً شديداً وفكروا فى الذى يفعلون وكانوا ينامون خارج مضرب اختص هو به مع الراهب فاتفق ذات يوم ان محمداً ذهب الى حانوت خمر وشرب كثيراً حتى أتى نشوان ونام فاجمعوا أمرهم على قتل صاحبه ودخل أحدهم واستل سيف النبي من غمده وقطع به رأس الراهب ثم أرجعه مكانه وانصرف ولما أفاق محمد فى الصباح ورأى صاحبه مقتولا أخذه الغضب جداً وشدد فى معرفة الفاعل فقالوا له انك ذهبت بالامس فغبت عنا طويلا ورجعت سكران فاخذت سيفك بيمينك وقت بيننا متهيجاً فظننا انك تريد قتل واحد منا وخشينا ان نقرب منك ثم عمدت الى الراهب فقتلته وارجعت سيفك الى غمده فى الحال وهو لا يزال مخضباً بالدماء فاعتقد صحة ماقالوا وحلفوا جميعا انهم لايشربون الخمر أبداً ومن هنا حرم الخمر خوفا لا تعبداً وهم اى الوثنيون (يعنى المسلمين) اينما وجدوا الخمر يغرقون فيه وهكذا انصرف محمد عن المسيحية ومال الى تلك الديانة البهيمية

« ومنها »

قصة الغزوة الكبرى - وهى لمجهول وعنوانها (محمد والحيل التى استعملها ليغش العرب والبلاد الاخرى) وقد جاء فيها وصف النبي وبيان حاله على ما كان مفتقداً فى تلك الايام قال المؤلف ظهر محمد فى زمن الامبراطور

هيرقليوس وهو مبتدع كذوب خوان تظاهر بالزهد والتقشف فى المعيشة وادعى انه نبي مرسل من الله فافتتنت به العرب ثم الاقاليم الشرقية الاخرى ولكي يجعل له ذكراً دائما ويخلد اسمه ويوسع نطاق مملكته ويديم عمله الشيطاني وينشر دينه الطاعونى قرر انه ليس من حاجة بعده لواعظ أو مرشد فى الدين وجعل قاعدته استعمال السيف كمن يهمز جواداً استعد من قبل الى العدو وبذلك أدخل أمماً كثيرة فى مذهبه وقد كانت عدواه أشد مصيبة من عدوى المسيخ الدجال ولن ينمحى آثرها الا اذا عظمت قوة الامبراطور وأمكنه ان يأمر قومه بالتمسك باهداب النصرانية والاعاقبهم بالاعدام ثم انتهى بهم الحال أى المسلمين فترفعوا عن الرجوع الى الحق ولم يمتثلوا أوامر الخالق المعبود .

(ومنها)

قصة جيبير دى نوجان ـ وهو مؤرخ الحرب الصليبية الاولى وقد نقل فى تاريخه عن قومه افكارهم وآراهم فى محمد والاسلام قال تعتقد الامة انه ظهر فى غابر الازمان رجل اسمه محمد أضل الناس عن الاعتقاد بالابن وروح القدس وعلمهم ان كل شيء آت بقدرة الاب الله الواحد الذى خلق الخلق وان عيسى لم يكن الا بشراً ومن فروض دينه الختان فارخى بذلك للناس عنان الفحش وقلة الحياء ولا أظن ان ظهور هذا اللعين كان فى زمن بعيد عنا لانى لم أجد رجلا واحداً من رجال الكنائس تعرض لرد مذهبه الدنيء ولم اقرأ فى كتاب شيئاً عن حياة ذلك الرجل وكيف كان يعيش ولذلك أرانى مضطراً الى الاخذ عن الذين سمعت ذلك منهم ومن التافه

ان نبحث عن معرفة صحيح هذا التاريخ من فاسده اذ غرضنا ان نبين كيف انه كان عظيما وكم من حادث عظيم خلد له ذكراً والكاتب فى امان من الخطأ ان أساء القول فى رجل فاق شره وصف الواصفين

(ومنها)

قصة الحرب الصليبية الاولى ـ لمؤلفها (توبيوف) وقد اتمها رجل مجهول وفيها يذكر ذلك المجهول دخول الصليبيين الى أورشليم وأول من دخلها هو (تنكريد دى سيسيل) وكان أول همه ان اسرع الى المعبد فدخله ثم جعل المؤلف يصف اندهاش القائد لما رأى ان صورة محمد موضوعة مكان صورة المسيح قال المؤلف ثم فتحت ابواب المعبد وكان اول من دخله تنكريد فرأى صنم محمد من الفضة وهو مصبوب وموضوع على قاعدة مرتفعة ثقيلة الوزن بحيث لايحركه ستة من الاقوياء الا بالمشقة وقلمايكفي عشرة رجال لحمله فامعن تنكريد النظر فيه وصاح يالالعار مامعنى هذه الصورة التى أراها موضوعة فى هذا المكان الرفيع وما المراد منها وماتلك الاحجار الكريمة وما هذا الذهب الوهاج وهذا الارجوان (لان محمداً كان متقلداً جميع حلاه) أهذه صورة المسيح كلا لان المسيح لماصلب على الخشبة كانت رجلاه ممسوكتين بالمسامير وضرب بالرمح فى جنبه اذن هذا ليس هو المسيح ان هذا الا المرذول محمد أول اعداء المسيح وهو المسيخ ولقد كنت اتمنى أن المسيخ الثانى الذى قيل بانه سيظهر فى مستقبل الايام يكون بجانب هذا لادوسهما تحت اقدامى وا كرباه هذا محمد المعذب فى الجحيم كيف يظهر عليه فى هذه الصورة انه صاحب الامر فى بيت الله كيف يكون لعبد

(براطون) وجود فى معبد الرب كما لو كان هو الرب ثم التفت الى جماعته وقال لهم هيا اصعدوا من فوركم فالقوه فى الحضيض فلقد اراد الله ان يكون كما أمرت لانه قائم امام النــاظرين بوقاحــة كأنه يريد ان يقوم مقام الله فانقضوا عليه وجذبوه وقلبوه وهشموه وجعلوه اربا وقطعوا ذلك المعدن الثمين فى ذاته الحقير فى صورته فصار ثمينا بعد ان كان حقــيرا وكان على جوانب المعبد عصابة من الفضة الخالصة وضعت تمجيداً لمحمد عرضها ذراع وسمكها كالاصبع وزنتها سبعة آلاف مارك ورأى تنكريد بحكمته ان لا فائدة فى بقاء هذه الفضة بغير استعمال فكسى منها الفقراء واطعم الجياع وسلح جندا جديداً فزاد فى قوته ويوجد فى المعبد أيضاً خمسمائة حوض من الفضة كانت مخصصة كلها لخدمة ذلك الصنم فيها كثير من آنية الفضة المختلفة الاشكال فاخذها تنكريد وكانت حيطان المعبد مغطاة بالاحجار وبعضهـا بالذهب والفضة فنزع تنكريد كل ذلك وجلبه الى بلده ثم اســتخرجت الاشياء الثمينه التى كانت مدخرة منذ زمن طويل وعرضت على النــاس وبعدها سلمت الى تنكريد

﴿ ومنها ﴾

قصة سفر (لودوف دى سودهم) الى الارض المقدسة ـ الفت سنة ١٣٤٢ ميلادية ولودوف سائح الماني جاء فى رحلته عن محمـد والمسلمين ما يأتى اعلموا انه فى سنة ٦٢٠ من تاريخ الرب جاء الشيطان باذن الله ونشر بدعـة المحمديين بالطريقة الآتية فاولا فتن الحبر سرجيوس الذى كان من طائفة القديس (بنوا) وطرد منها لاعتناقه بدعة (نسطريوس) وبعـد ان فتنه

انفذه الى مقام الملك فى رومة لينال بعض الوظائف الدينية ولما لم ينل مراده ويئس من النجاح قفل الى بلاد العرب ونزل فى بنى هاجروهم بنى اسماعيل الذين سموا أنفسهم (سرّازيين) تفاخراً بساره التى كانت بنت اسماعيل ولكن هذا الاسم لا يليق بهم ويجب ان يطلق عليهم عنوان (الماغومديين أى المحمديين) تبعاً لاسم ماغومد الذى اغترت به تلك الطوائف الخشنة التى تسكن الصحراء ولما صار سرجيوس المذكور فى تلك البلاد وجد رجلا جاهلا احمق اسمه ماغومد واثر عليه حتى اعتقد فى نفسه انه نبي ووضع له بعض البقول فى اذنه اليمنى وعلم حمامة فصارت تأتى كل يوم فتقف على كتفه وتلتقط الحب منها ثم جعل سرجيوس يدعو في الناس بان الله اختار بنى هاجر وكانوا فى ذلك الحين أحقر الامم وأرذلهم واراد ان يخرج من بينهم نبي الانبياء وان روح القدس سيناجيه امام الناس فى صورة حمامة فصدقوا ولما صار ماغومد وسطهم أطلق سرجيوس الحمامة وكانت على سغب فطارت الى كتفه وجعلت تلتقط الحب من اذنه فاشار اليه سرجيوس انه هو النبي المرسل من قبل الله لأمته ولم يكن أحد مّا يعرف ماغومد وهو نفسه ما كان يعرف عائلته بل وجدوه لقيطاً فى الصحراء فآواه بعض الاغراب وربوه حتى صار من رعاة الابل ولكونه كان مجهولا عند الناس ظنوا أنه نزل من السماء

ثم انتشر صيطه جداً حتى صار الناس يفدون عليه فى كل يوم من اقاصى البلاد وعند ذلك اجتهد سرجيوس فى اقناع امرأة من العرب اسمها (كندو كاجيا) (خديجة) فتزوّجت ماغومد واستعمل ماغومد الغلظة

والغش حتى اخضع الامـة بتمامها لسلطته ثم أصابه دآء الصرع انتقاماً من عـبد الله وكان كلما ينتابه الدور يقول ان السبب فى تألمه ناشئ من محادثته مع ملك من الملائكة ومن ذلك الحين أخـذ فى سـن القوانين المنجسـة وتأليف الكتاب المسمي التريان (القرآن) فكتبه هو باملاء سرجيوس لانه كان مجرداً عن كل تربية وتعليم . وهذا ما كتبه فى أول ذلك الكتاب التريان بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله خالق الامة الذى أوجدنا وهـدانا الى الطريق المستقيم الا الذين غضب عليهم فجعلهم من الملعونين قال الراوى ونقل محمد فى هذا الكتاب كثيراً عن كتاب موسى والانجيـل وترجم كثيراً من نصوصها باللفظ مع ان معانيها خفيـة مجازية وفيه كثير من التشبيهات الفارغة التى لايمكن تصـورها فنها ما كتبه عن المسيح (نحن نعلم جيداً من هو عيسى ابن مريم الرجـل القديس الذى خلق من روح القدس فى احشاء امه وجاء بالكتاب للنصارى وكما انه نسخ شريعة موسى فى اليهود فقد بعثنا الله لنصلح شريعة عيسى) وجاء فيـه أيضاً (ان اليهود صلبوا عيسى ولكنه لم يتألم فى الحقيقة وان حياته بعد ذلك مخترعة والماغومديون يعتقدون ذلك)

وفيه أيضاً (ان عيسى ليس ابن الله ولكنه رجل صالح رفع الى السماء ودرجته فوق جميع الناس الا ماغومد كل هذه فى التريان)

وعلى هذا يعتقد الماغومديون فى الله القاهر وفى كتابه وفى ماغومد وفى القديس مخائيل (ميكائيل رئيس الملائكة) لذين يعترفون اليه ليلا بذنوبهم فى الجبال ولهم خمسة أعياد يصـرمون فيها الى المساء ولكنهم

يسترجعون جميع قواهم في الليل وهكذا يفعلون في كل صوم ولهم عيد سادس جعلوه للشعرى اليمانية التي يعبدونها أيضاً ويختتنون ولا يأكلون لحم الخنزير كاليهود ويكتسون ويحلقون ويركعون كالرهبان ويجوز لهم سبع من النساء بل أكثر من ذلك ويطلقون من لا يريدون من بينهن كالوثنيين ولذلك فكثير منهن يقتلن بعضهن بالسم لحقدهن وغيرتهن وفي الرجال حدة وشهوة يأتون الذكر وليس في قدرتهم ان يقوموا بواجب امرأة واحدة ومع ذلك يتزوجون بعدد كثير ولذلك فهم في الغالب يموتون بالسم من نسائهم ولهذه الاسباب كلها ينقطع نسلهم وان كانوا منهمكين في اللذائذ الجسمانية هذا كل ماعلمهم اياه وأمر باتباعه ماغومد الختال النذل المرذول

ولبني سارة في بلادهم قضاة واساقفة يأمرون قسسهم المحقرين وقد زعم أحد القضاة انهم من أولاد القسيسين وفي الواقع أصلهم كذلك ويشتد أولئك القضاة جداً على النصارى اذا تقدمت اليهم شكوى ضدهم بانهم دخلوا الكنائس الاسلامية أوحضروا اقامة شعائر ذلك الدين أو سبوا ماغومد فيحكمون عليهم أن يقطع الواحد منهم أرباً ثم ختم المؤلف رحلته بقصة موت محمد فقال اما ما يجب معرفته من وفاة ماغومد فهو انه بعد ان حكم سبع سنين في بلاد العرب دست له امرأته السم لانه كان قذراً مصروعاً وبينما هو ذات يوم في الصحراء منفرداً كعادته اذ تحرك عليه السم فوقع ميتاً بعيداً عن الناس ونهشت جثته الذئاب والضواري وقيل في بعض الروايات ان الخنازير الوحشية أكلته ولم يجدوا شيئاً من أثره اذ ماترك الذئاب الاملابسه ولاصحة لما يقوله المسلمون من ان عظامه جمعت ودفنت

في مدينة مكة وانها معلقة في الهواء كما حققه بعضهم ممن تنصروا وكانوا قد زاروا ذلك المعبد ولم يروا فيه صندوقاً وليلاحظ ان المسلمين الذين يذهبون الى الحج ويصلون في مكة يعتقدون ان فيها قبر ماغومد ومع ذلك يقولون ان هناك أول معبد لآدم وان ماغومد أمر بالصلاة فيه ومتى ذهبوا الى ذلك المكان لا يفعلون شيئاً سوى رمي المعبد بالاحجار ليرجموا الشيطان

﴿ ومنها ﴾

رسائل (ريكولدو) — وهو قس من التليان توفي سنة ١٣٢٠ وفي تلك الرسائل بيان في الديانة الاسلامية وقد اشتد حزن المؤلف وغضبه من وجود تلك الطائفة اللعينة وكان يكثر من مناجاة ربه واظهار الضجر والتوجع من ذلك اليه

جاء في احدى رسائله ويعتقد بنو ساره انهم ناجون بواسطة غشومهم اللعين محمد الذي توسل بالعسف والخبث الى اقناعهم بنبوته وأولئك الذين يؤمنون بمثل هذا الرجل لا يقال لهم بنو ساره بل مسلمون أي ناجون واني لا أذكر لكم كل ما جاء في ذلك الدين بل اقتصر على امرين الاول ان محمداً يجتهد في ابادة التثليث المقدس تماما الذي هو دينكم لانه ينفي الابن عن الآب وينفي الآب عن الابن وينفي روح القدس عنهما ودليله ما قرأته عليكم باللغة العربية في القرآن وما يريد اثباته في عدة آيات وجملة مواضع ويجمله الدليل القاطع من انه يستحيل على الله ان يكون له ولد لانه لم يكن له امرأة ومعلوم ان من انكر الابن فقد أنكر الآب واذا انتفى الابن والآب فلا وجود لروح القدس كذلك قرأت في موضع آخر من القرآن (ان الله لا يغفر ان يشرك

به ويغفر ما دون ذلك) وهو يقول ذلك فى مواضع أخرى وقرأت أيضاً ان الله يصلى على محمد

ويؤخذ من رسالة اخرى ان المؤلف كان يستغيث بالقديسين والقديسات ثم يستنجد أخيراً بالقديس (دومنيك) والقديس فرنسوا ويأخذه العجب من انهما لم يتمكنا من التغلب على عدوه قال ومن هو عدوى هو محمد ذلك المجرم ذلك الختال ذلك الكافر بالله وبالتوراة المقدسة نعم انى لاعجب من انكما وحدكما لم تمحياه بعد من الوجود أناجيك أيتها القديسة مريم مدلين ياصاحبة المسيح المصطفاة واستنجد بحولك ضد محمد وبنى ساره المحمديين لأنك تعلمين أيتها السيدة المقدسة انى وجدت كنيستك الجميلة التى أقامها المسيحيون لخدمتك فى (مجدلة) قد جعلها بنو سارة مربطا للبهائم وصارت مسكناً لاقذر الحيوانات كذلك كنيستك اللطيفة التى بناها لك المسيحيون فى بطنية وهى التى اذرف فيها المسيح دموع العشق الالهى واحيي اخاك لازار من قبره وجدتها ملطخة بالاقذار وصارت مربطاً للحيوانات الوحشية ياسيادنا ألا يمكنكم ان تساعدوا المسيحيين على المحمديين أوانكم لاتريدون ذلك انى اعتقد بانه يمكنكم ولكن لا تريدون الا اذا صح انكم صرتم من بنى ساره (مسلمين) لان من المحقق فى جميع انحاء الشرق ان القرآن كلام الله فاذا صح ان القرآن كلام الله فمن المحقق والمؤكد والذى لا شك فيه أبداً انكم صرتم رسلا مسلمين ومقلدين لمحمد ذلك لانى قرأت فى الفصل الثالث من القرآن ان عيسى بن مريم لما رأى البدع فشت فى بنيه سأل عمن ينصر الله فاجابه الرسل وكانت هذه الدعوة قد اصلحت مابهم نحن نصراء الله

نحن مخلصون لله ونشهد باننا مسلمون واننا مقلدون لمحمد

﴿ ومنها ﴾

سياحة امير (امير انجلور) — التي كانت سنة ١٢٩٥ مسيحية ذكر فيها ماياتي : سرنا يوم الاحد الموافق ٣١ اكتوبر طول النهار ومشينا يوم الاثنين وهو يوم عيد القديسين حتى اقتربنا من حنفية السلطان فررنا أمامها وأقمنا على بعد فرسخين منها والعادة ان جميع الحجاج يحطون خيامهم قريباً من تلك الحنفية ليقتلوا الهجير بالماء البارد لانه منذ الخروج من غزة لايوجد ماء صالح للشرب الا في حنفية السلطان والسبب فى عدم اقترابنا منها هو انه كان يوجد حولها عشرة آلاف من المسلمين قادمين من مكة وجالسين هناك ليترطبوا بماءها وكان كل واحد منهم يلبس لباس بلده وكلهم يعبدون سيدهم النبي محمد والمسافة بين مكة والقاهرة مسيرة خمسين يوماً فى الصحراء وعلى مايقال ان مكة هى مدينة كبيرة جداً وهى ايضاً مدخل الهند وحقق لنا بعضهم ان فى القاهرة المذكورة اثنتى عشرة الف كنيسة لأولاد ساره يقال لها مساجد وفيها يقرأون صلواتهم ويتعبدون واعلموا أيضاً انهم اكدوا لنا انه كما يوجد فى القاهرة اثنى عشر الف مسجد يوجد اثنى عشر الف حمام لكل مسجد حمام ويقولون ان كل مسلم لايجوز له ان يسمع التلاوة الا اذا كان طاهراً وكلما اختلى بحاله وجب عليه الغسل ولهذا فان الناس يغتسلون كثيراً فى تلك الحمامات خصوصاً الاغنياء والفقراء يغتسلون فى اليم واعلموا اننا رأيناهم يغتسلون وهم يغتسلون عراة بغير أدب ولا احتشام أمام الناس

(ومنها)

اخبار القديس (دينيس) وفيها يقص المحدث كيف ان مدينة دمياط استخلصت من رجال ملك فرنسا سنة ١٢٤٩ ميلادية ويخبر بابادة الاصنام الاسلامية حيث يقول وقد تقدم الرسول الى المحمدية (يريد بها الجامع) وامر ان تنكس جميع الصور الباطلة واصلح المكان وجعله مستعداً لعبادة سيدتنا المقدسة مريم ثم أقام فيه صلاة على سيدتنا .

(ومنها)

قصة (مركبروس) ـ وهو اول من عرف من شعراء الحرب الصليبية الاندلسية (سنة ١١١٤ الى سنة ١١٢٤ وهى التى انتخب فيها (الفونس) السابع رئيساً ولقب بالامبراطور وقد بدأ الشاعر شعره بما يأتى :

ان الله الذى يعلم كل ماهو كائن وكل ما كان وما يكون قد وعدنا نعمه بواسطة امبراطور اسبانيا . عجباً هل تعلمون ماينال من الفضل أولئك الذين يتطهرون فى الحوض المقدس وينصرون الله من تعدى الوثنيين فى بلاد العرب وطغيانهم ان مجدهم ليكون ابهى من الشهاب الذى تهتدى به فلك البحار ان أمة الكلاب التى ظهر فيها ذلك النبي الكاذب وأولئك الرجال الخائنون الذين هم اتباع ذلك الرئيس المبتدع قد كثروا فيما يلى الشواطىء والثغور حتى لم يبق احد يعبد الله فعلينا ان نطردهم بفضل الحوض المقدس مسترشدين بالمسيح لنقصي أولئك المحقرين الذين يعتقدون بالسحر والطوالع

(ومنها)

حكاية (جوُنفيل) ـ وفيها صيغة اليمين الذى حلفه الامراء المصريون بين يدى سانلويس ملك فرنسا لما دخل تلك البلاد وهى نعاهدك على الطاعة واذا خنا فعلينا لعنة من يرتكب ذنباً ويذهب الى الحج بمكة ليزور محمداً ورأسه مكشوفة ولعنة من يطلق امرأته ثم يراجعها لان من طلق امرأته فشريعة محمد تقضى عليه ان لا يراجعها الا بعد ان ينكحها غيره وانهم ان خانوا عهودهم مع الملك فعليهم لعنة المسلمين الذين يأكلون لحم الخنزير وقد قبل الملك منهم هذه الايمان لان نقولا المكاوى الذى كان يعرف المسلمين قال له انهم لا يستطيعون ان يغلظوا ايمانهم اكثر من ذلك

ومما جاء فيها أيضاً قوله ان الامراء أرادوا ان ينكثوا عهده اطاعة لاوامر القرآن فقال أحدهم اننا اذا قتلنا الملك بعد ان قتلنا السلطان يقول الناس ان المصريين اقبح الناس وأشدهم خيانة وكفراناً وقال آخر حقاً نحن كنا من الاشرار بتخلصنا من سلطاننا الذى قتلناه لاننا خالفنا أوامر محمد الذى يأمرنا بالاحتفاظ على سلطاننا كما نحتفظ على العيون ولكن اسمعوا أمره الثانى المكتوب فى الكتاب ثم تصفح ورقة من الكتاب وقرأ حافظوا على الشريعة بقتل اعداء الشريعة فنحن خرجنا عن أمره لما قتلنا السلطان ثم اننا نخرج عن امره أيضاً اذا لم نقتل الملك مهما كانت عهودنا معه لانه أكبر أعداء الشريعة الوثنية

وحكى جوانفيل قصة دارت بين رجل من رجال الملك وشيخ من المسلمين فى سوق دمياط تبادلا فيها الحديث على الدين فقال ذهب حنا

ارمين أحد عساكر الملك الى دمياط ليشترى قروناً وجلوداً كى يصنع منها نبالا فوجد رجلا شيخاً كبيراً جالساً فى السوق فناداه وسأله ان كان نصرانياً فاجابه نعم فقال له الشيخ انكم حقا تكرهون بعضكم ايها النصارى ولانى شاهدت مرة ان ملككم المسمى (بدوان) كسر صلاح الدين ولم يكن معه الا ثلاثمائة مقاتل مع ان جيش صلاح الدين كان ثلاثة آلاف واليوم قد وصلتم بذنوبكم الى حالة جعلتنا نأخذكم فى الحقول أخذ الماشية فقال له حنا يجب عليك ان تمسك عن ذنوب النصارى لان ذنوب المسلمين أعظم وأشد فقال له المسلم انك أجبت بغير تعقل فسأله حنا ولم ذا فقال له انه سيخبره بالسبب ولكن يسأله قبل ذلك ان كان له ولد فاجابه نعم ولد ذكر فقال له اى الامرين أشد وقعاً في نفسك لطمك باليد على وجهك منى أو من ولدك فقال له حنا انى أغضب من ابنى اذا ضربنى اكثر مما لو ضربتنى انت فقال له المسلم اذن اجيبك على سؤالك الاول وهو انكم تعتقدون بانكم اولاد الله المسيح الذى سميتم مسيحيين عنه وانعم عليكم كثيراً حتى جعلكم تعرفون الشر من الخير ولذلك فان الله يغضب منكم اذا فرط منكم ذنب صغير اكثر منا اذا صدر عنا جرم عظيم ونحن جهلاء جداً الى حد اننا نعتقد النجاة من ذنوبنا لو اغتسلنا قبل الوفاة لان محمداً قال لنا باننا نطهر من ذنوبنا بالماء عند الممات

ومما يلذ ذكره ما كان يعتقده الصليبيون فى مذهب الشيعة عند المسلمين قال اليسوعى (ايف بريطون) وكان يعرف العربية يروى عن اعتقاد شيخ الجبل رأيت ان شيخ الجبل لا يعتقد بمحمد ولكنه يعتقد

بشرع علي عمه وعلي هو الذى رفع محمداً الى درجات الشرف التى وصل اليها فلما انتهى اليه الامر وصار أميراً على الامة احتقر عمه وأبعده فلما رأى على ذلك جمع اليه من أحبه من الناس وعامهم شرعاً غير الذى املاه محمد ومن هنا جاء ان اتباع علي يقولون ان اتباع محمد كافرون ويقول اتباع محمد ان اتباع علي كافرون ومن معتقدات احزاب علي ان الرجل الذى يموت في تنفيذ اوامر ربه تذهب روحه فتحل جسداً تسعد به اكثر من سابقه ولذلك فان المقاتلين لا يهابون ان يقتلوا أنفسهم متى امرهم الامير لاعتقادهم انهم سيسعدون بالموت اكثر مما لوكانوا احياء ومن معتقداتهم أيضاً انه لا يموت احد قبل اليوم المحتوم لاجله مع انه يجب انْ لا يعتقد احد مثل ذلك اذ في قدرة الله ان يطيل الحيوة او يقصرها والبدو يعتقدون ذلك ولهذا فانهم لا يلبسون الزرد اذا حاربوا كيلا يخالفوا أوامر شرعهم واذا لعنوا اولادهم قالوا لهم عليكم لعنة الكافرين الذين يخافون الموت فيلبسون الزرد والصفائح قال صاحب القصة وقد رأيت كتاباً موضوعاً ناحية رأس شيخ الجبل فيه أقوال كثيرة مما قاله الرب للقديس بطرس عند نزوله الى الارض فأوصيته بتلاوة تلك الاقوال لانها اقوال طيبة فاجابنى ان هذا شأنه لانه يحب القديس بطرس اذ في بدء العالم لما قتل قابيل انتقلت روحه الى نوح فلما مات نوح انتقلت منه الى ابراهيم وانتقلت من بعده في جسم القديس بطرس لما نزل الرب الى الارض فلما سمع منه ايف اليسوعى ذلك قال له ان اعتقاده لم يكن سليما والقى عليه كثيراً من التعاليم الطيبة ولكنه لم يرد ان يصدق بها

(ومنها)

قصة تيربان الكاذب ـ وهي حكاية موضوعة لا يؤخذ منها سند في التاريخ ولكنها احتوت على ما كانت عليه الاخلاق والافكار في القرن التاسع والمرجح انها انشئت في القرن العاشر وكانت في زمانها منتشرة راسخة في الاذهان ولكنها اليوم معدودة من الاقاصيص المخترعة باتفاق ولاحتوائها على ما ذكرنا رأينا ان اقتطاف طرف منها مفيد في موضوعنا ففيها كلام طويل عن صنم محمد وكيف ان الملك العظيم شارلمان لم يتمكن من ابادته كما عجز عن ذلك غيره من النصارى قال لما دخل شارلمان بلاد اسبانيا امر رجاله فكسروا جميع الاوثان والاصنام ما خلا الصنم الموضوع في بلاد الاندلس الذي يقال له سلام ومعنى سلام باللغة العربية الله والمسلمون يقولون ان هذا الصنم من صنع شارعهم محمد ولذلك يعظمونه ويعلون قدره ومحمد هو شارع كاذب وقد صنع ذلك الصنم من العفاريت بسحره وجعله بسحره من القوة بحيث لا يقدر احد على كسره فاذا اقترب منه احد من النصارى يموت في الحال واذا دنى منه مسلم ليعبد محمداً ويصلي له يعود بدون جرح يصيبه ولا ضرر واذا وقف عليه طائر مات في الحال وتلك الصورة موضوعة على حجر قديم غاية في الصنع والاتقان من صناعة بني ساره على شاطئ البحر في ارض فسيحة مربعة ويبلغ ارتفاعه مبلغ ما يناله الطير في ارتفاعه والصورة المذكورة هي من معدن غال على شكل رجل قائم على رجليه ووجهه الى الجنوب وبيده اليمنى مفتاح كبير الحجم يعتقد بنو ساره انه يسقط من تلك اليد يوم يولى في بلاد الغلوا (فرنسا) ملك تدين له جميع بلاد اسبانيا

ويعدل الشرائع النصرانية على حسب الزمن الجديد ومتى رأى بنو ساره ان المفتاح قد سقط يخفون كنوزهم في الارض ويهربون

﴿ ومنها ﴾

المرآة التاريخية ــ طبعت أول مرة سنة ١٤٨٢ وهي لرجل من أصحاب دومينيك يقال له (فنسان دى بوفى) المتوفى سنة ١٢٦٤ وضعها بناء على أمر الملك (سان لويس) وخصص أحد فصولها وهو الرابع والعشرون من الجزء الرابع لتاريخ محمد ويقول المؤرخون انه أخذ كثيراً عن العرب ولكنا نراه أخذ أكثرها من قصة تريان الكاذب واليك المواضيع التي تكلم عنها في الفصل المذكور الاول بدعة التوحيد والبرنسيس (يعني بها السيدة خديجة) وشريعة محمد وفي هذا الموضوع يذكر قصة الحمامة التي تعلمت ان تقف على كتف النبي لتلتقط الحب من اذنه وقصة الثور الذي استأنس

الثاني سرقات محمد وخداعه وفظائعه وفيه يذكر ان النبي كان يقتل ويخنق كل من رآه ومن هنا جاء وهم الناس بانه كان نبياً فتاكا

الثالث قذارة شريعة محمد وخرافتها وكيف وجد القرآن وفيه يذكر حكاية الراهب سرجيه الذي قيل انه علم النبي العهدين القديم والجديد

الرابع حمق اتباعه وتعصبهم الاعمى وصيام المسلمين الكاذب وغسلهم والحج الى البيت بمكة واعتقادهم بنزول الوحي فيه والاصنام التي أبادها شارلمان والتي أقامها

كتاب البابا بى الثانى
الى السلطان محمد الثانى

كتبه اليه عقب سقوط القسطنطينية فى يد الاتراك واندثار دولة الشرق وتزعزع دولتى ايطاليا واليونان وقد اجتمع خلق لايحصى عددهم لينتظموا فى سلك الصليبيين تحت امرة اسكندر بك (وماتياس كورفين) ورأى البابا وهو (بى) الثانى ان الخطر على النصرانية يزداد بتمكن الترك واستتباب الامور لديهم فظن انه ليس من المستحيل حمل السلطان محمد على اعتناق الدين المسيحى وبذلك يوقفه فى عنفوان فتوحاته ولهذا كتب قبل أن يرحل عن مدينة (انصون) ليسير مع الصليبيين خطاباً نقتطف منه مايأتى وقد نقلناه من النسخة الاصلية المكتوبة بيد البابا فى المكتبة العمومية الموجودة فى القسم اللاتينى فصل ١٢٨ ١٨ نمرة ١٥

من القس بى خادم خدام الرب الى صاحب المجد محمد أمير الاتراك سلام الله وخوفه

قد أردنا ان نكتب اليكم هذه النصائح حباً فى نجاتكم وحفظاً لفخاركم وميلا للتخفيف عنكم وتثبيت الهدو والسلام فى كثير من الامم ونستميحكم ان تتفضلوا بالاصغاء الى مانقول

نحن لانمتقد فيكم الا انكم اليوم ولستم كاهل (سكالونه) من بلاد اسبانيا الذين قيل عنهم انهم لا رب لهم ولا اله يعبدون ولا نراكم الا موقنين بربنا وتعبدون الذى خلق الارض والسموات وما فيهن الله الذى لا يترك ما خلق ولا نعتقد فيكم أيضاً انكم تجهلون وحدة النفوس البشرية التى اذا

فارقت أجسامنا انتقلت ألى مقام آخر فيسكن بعضها جنات النعيم وهي ما طهر منها وتسكن الخبيثة جحيم العذاب وليس هذا مذهب خاص بأنجيلنا وبالأنبياء بل جاء به شرعكم أيضاً وان كان أخطأ من حيث جاء فيه ان ما يوجد في هذه الدنيا الفانية من السعادة ناشئ عن الصدفة والعرض

يقال ان شرعكم ينص على ان كل نفس ناجية بدينها على شرط أن تعيش عيشة خير حتى ولو ترك المسلم الاسلام واعتنق ديناً غيره ويقال انه مكتوب فيه (وهو كثيراً ماينافض بعضه) أن ليس للانسان نجاة الا اذا اعتقده وعمل به أما نحن فاعتقادنا ان طريق النجاة غير مفتوح الا للنصراني أن اتقي وأحسن عملا فقد جاء الانجيل بالآية الآتية وهي الحقيقة التي تجلت لنا (من صدق وعُمّد فقد نجي ومن لم يصدق فلا نجاة له)

ثم أخذ البابا يعدد ما حصل للاسرائيليين من المحن طبقاً لما جاء في العهد القديم وقال ومن الصحيح عندكم وعندنا ان شريعة اليهود حقيقية وان موسى وداود وسليمان واسحاق وحزقيال ودانيال أنبياء حقيقيون وكذلك جميع رسل الله وحق دين اليهود الذين عاشوا مع المسيح وباطل دين المجوس وعبدة الاوثان وهنا أتى البابا على خلاصة العهد الجديد وأطال في رسالة اليسوع وذكر المعجزات الكثيرة التي تؤيدها وان رسالة محمد لم تتأيد بدليل الهي البتة ثم استتبع كتابه فقال وأنتم لاتقتدون معشر المسلمين الا بمحمد وقرآنه فأنتم تسلمون على مقتضى شريعة رجل مات بغير حجة ولا دليل ولا وحي ولا تنزيل أما نحن فنتقيد بواحد حي وهنا أيضاً استلفت البابا ذهن سلطان المسلمين الى ان الفرق بين الديانتين انما هو في الاعتقاد بالتثليث فقال وسنوضح

لكم باجلى بيان ما الفرق بيننا وبينكم من حيث الله نحن نقول ان فى الله ثلاثة ذوات الاب والابن والروح القدس وانتم لا تعتقدون الا بذات واحدة لا تسمونها اباً ولا ابناً بل الله وتقولون انه هو وحده خالق السموات والارض ومافيهن ولذلك فبين النصارى وبنى سارة او الترك خلاف كبير فى الله فانتم تقولون ان الله جسمانى ونحن نقول انه غير جسمانى وانتم تقولون ان مايجرى فى الارض يجرى بالصدفة ولا دخل لله فيه ونحن نعتقد بان الذى خلق كل شىء هو الباسط سلطانه على كل شىء وانتم لا تقولون بالاب فى الالوهية ونحن نقول به وبالابن وانتم تنفون الروح القدس ونحن نحقق وجوده ونعبده نحن نقول بان المسيح ابن الله وانتم تنكرون بنوته ولماذا تنكرون ذلك لان الله لا يمكن ان يكون له زوجة يلد منها ولداً ولانه لو كان له زوجة وله اولاد منها للزم فساد العالم لتعدد القائمين بامره وانما العالم بيد رب واحد والوحدانية هى عماد الدنيا وحفاظ الممالك والدول أما التعدد فمن لوازمه الفشل وأخص لوازمه الخراب والدمار ولكن لم يبلغ النصرانى من الجهل والسخافة وقصر النظر مايحمله على الاعتقاد بان الله يلد ولداً بواسطة الزواج والاختلاط بالنساء ولم يبلغ منا معشر المسيحيين ضعف العقل حتى نقول بمثل هذا الامر الفظيع بل ربما جاز تعليم ذلك لبنى ساره (المسلمين) الذين يعتقدون ان لله جسما وله رأس ويدان واعضاء ولكنا نحن نحقق ان الله روح لا تجسد فيه باق لا يموت ابداً لا تدركه الافهام . ولننتقل الى تعدد الزوجات وهو ماجاء به شرعكم وانتم ترونه الطف شىء مقبول جاء فيه وانفعه على انه لو كان تعدد الزوجات مقبولا عند الله لوهب عبده الذى خلقه اكثر من زوجة واحدة

ولم يقل الله ان الرجل ليترك اباه وأمه ويعلق بازواجه بل قال بزوجته ومن المعلوم ان المحبة الحقيقية لا توجد بين الرجل وزوجته لا بالمساواة بينهما فبينما الرجل عندكم يتزوج نساء كثيرة نرى المرأة تلزم رجلا واحداً فهي كلها له وليس لها منه الا اليسير ومع ذلك فالنوع الانساني لا يكثر بهذه الطريقة لان كثيراً من الرجال لا ذرية لهم لان عدد النساء أقل كثيراً من عدد الرجال ثم انه ليس من العدل ولا من الموافق للحرية البشرية ان بعض الناس يقتني ازواجا كثيرة وبعضهم يعيش أعزب لا زوجة له ولا ينبغي لنا ان نقول بتعدد الزوجات لكونه عادة قديمة ولان اباء الامم الاولين كانوا يتزوجون باكثر من واحدة لانهم لم يفعلوا ذلك بنص في الشرع ولا تبعاً لشهواتهم بل تلك مزية اختصهم بها الله لكي يكثر نسلهم فيخلفهم من يقوم بعبادة الله بعدهم وانا نضرب صفحا عن الطلاق الذي تبيحونه ضدما جاء في الشرع الانجيلي وعن الزنا والميل الى اللذات الجسمانية وغيرها من الجرائم التي حرمتها الشريعة القديمة وحظرتها الجديدة ومع ذلك يظهر انها مباحة عندكم

ثم أخذ البابا يقابل بين النعيمين اللذين وعدهما الشرعان للناس وختم كتابه بدعوة السلطان الى اعتناق النصرانية فقال ان للاخيار سعادة ابدية ليست في اللذائذ البهيمية أو الامور التي تخالف مقتضى الحشمة والوقار وليست على سرر تُرتاح فيها الاجسام بل السعادة هي راحة النفوس وحب اليسوع الذي يفوق كل لذة في الوجود فلتذكروا قولنا ولتقبلوا نصيحة محب لكم وادخلوا في معمودية المسيح واستحموا استحمام روح القدس واعتنقوا الانجيل المطهر فان ابيتم نصائحنا تبدد مجدكم كما يتبدد الدخان

ومتى متم كبقية الناس مات معكم كل شىء اما اليسوع فهو وحده سلطان الامم الى الابد فله المجد الاعلى والجلال الاكبر ابد الابدين ودهر الداهرين أمين

﴿ الملحق الثانى ﴾

(كتاب سان أوغستان الى الكونت بونيفاس)

ننقل هنا عن ترجمة موسيو بوجولات الفرنساية اهم مواضع الكتاب الخامس والثمانين بعد المائة الذى كتبه سنة ٤١٧ القديس اوغستان الى الكونت بونيفاس حاكم افريقيا فى ذلك الحين ليؤيد القسوة التى استعملها الامبراطور (هنريوس) مع احزاب (دونا) واولى بمن يتسرع الى ذم هذا الكتاب نظراً الى الافكار المألوفة فى الاعصر الحالية ان يلتفت الى المبدإ الحكيم الذى ادخله فى التاريخ موسيو (لافيس) وسماه مبدأ شرعية التعاقب فان ذلك يجعل المؤلف على حذر فى حكمه على الحوادث لانه يعلم ان المذاهب تتغير وان الحاضر ليس على الدوام موصلا الى الحكم على الماضى فكم من فكر اندثر ولا بد ان يرجع للاذهان وكم من مذهب مقبول اليوم سيندثر قال موسيو (فرانس) ان جميع المبادىء التى يقوم بها نظام الهيئة الاجتماعية فى هذه الايام كانت قبل رسوخها فى الاذهان وصيرورتها نافعة معدودة من المبادىء المضرة المخالفة للنظام كما ان المنافع الاجتماعية هى التى كانت حجة من ذهب الى المسالمة ومن مال الى السيف والقسوة

قال صاحب الكتاب

لقد جرى لاحزاب (دونا) كما جرى لمتهمى دانيال فان القوانين التى ارادوا ان يظلموا بها بريئا استعملت ضدهم كما انقلبت الاسود على متهمى الرسول لكن من لطف المسيح ترى تلك القوانين أحسن فى الواقع لاصحاب (دونا) مما يظنون فهى تعيد الى الحق كل يوم فريقاً منهم وقد يشكو المريض المهيج مرضه من طبيب يشد وثاقه ويشكو الولد الخارج عن سلطة ابيه من والده اذا ادبه وكلا الاثنين (المريض والولد) محبوب فتركهما وشأنهما كما يريدان رأفة قاسية وان الفرس والبغل وهما من العجماوات يقاومان من يضمد جراحهما وربما كان منهما مايخشى منه على حياة القائمين بتمريضهما ومع ذلك لايتركهما المطبب حتى يستعلى الدواء على الداء فيحصلان على الصحة وفى الناس خلق كثير لايجوز تركهم خوفاً من الهلاك ومتى عاد الرجل منهم الى هداه يعلم ان الذى كان يراه قسوة وظلما ليس الا نفعاً واحساناً ولو أردنا الوقوف عند حد الحقيقة لرأينا ان القسوة الظالمة هى التى يستعملها الكافرون ضد كنيسة المسيح وان القسوة الشرعية هى التى تأتيها كنيسة المسيح ضد الكافرين وهى سعيدة ان أصابها العذاب فى طلب العدالة وهم أشقياء اذا أصابهم العذاب وهم فى طلب الباطل والكنيسة تعذب محبة فيمن تعذب وغيرها يقسو بعامل الحقد والبغضاء فهى تدعو الى الحق وهم للحق كارهون وهى ترمى الى النجاة من الظلمات وهم فيها خالدون

ولقد اشتدت وطأة المبتدعين على النصارى من خدمة الدين وغيرهم

فكانوا بين حالين أما ان يخفوا الحق واما ان ينالوا ماتستطيعه الهمجية من أنواع القسوة والتعذيب . ومعلوم ان السكوت عن الحق لا يرجع أحداً عن الغواية بل ان فى ذلك مدرجة ليدخل فى الباطل كثير من قومنا ومن جهة أخرى فان الاعلان بكلمة الحق كان من شأنه ان يثير غضب المبتدعين وذلك يلحق الاذى بمن قرب عهد رجوعه الينا ويمنع ضعفاء العزائم من سلوك الطريق المستقيم أفى هذه الحالة يجوز ان تلزم الكنيسة جانب السكوت وتتحمل هـذا كله ولا تطلب معونة الله من القياصرة المسيحيين انه ليس من علة ولا حجة تقوم فى جانب ذلك الاهمال

ان الذين كانوا لا يريدون ان توضع لردعهم عن غيهم قوانين عادلة يقولون ان الرسل ما كانوا ليطلبوا مثل ذلك من ملوك الارض وقد غفلوا عن ان زمانهم ليس زماننا وان الامور مرهونة باوقاتها فاى قيصر فى ذلك الزمن كان يعتقد بالمسيح حتى كان يضع من القوانين مايؤيد دين الحق ضد أهل الضلال لكن بعد ان حقت كلمة المسيح وصدق القول بان جميع ملوك الارض سيعبدون الله وان جميع الامم ستخدمه لم يبق من رجل عاقل يشير على الملك بعدم الاشتغال بمن يدافع عن كنيسة ربه ومن يخرج عليها ولا بمن يعتقد بالله او يكون من الكافرين وفى الحقيقة حيث ان الله اودع الاختيار فى الانسان فليس من مرجح يحمل على معاقبة من يزنى مع عدم عقوبة من يكفر بالله كأن الكفر بالله اصغر جرماً من خيانة المرأة لزوجها او ان قلة العقوبة على الذنوب التى يرتكبها الناس لجهلهم بالدين لا لاحتقارهم اياه تصح ان تكون سبباً في عدم العقاب . هل من رجل كان يمكنه ان يقول

لملكه ايها الملك لا شأن لك فى هذا فدع الناس من اتقى منهم ومن فجر . نعم ليس من يشك فى ان استجلاب النفوس لعبادة الله بالتعليم والتهذيب أولى من الزامهم بها بواسطة القهر والارهاب ولكن لوجود قوم تسهل لهم معرفة الحقيقة لا ينبغى اهمال من ليسوا على شاكلتهم وقد دلتنا التجارب ولا تزال تدلنا على ان الخوف والالم افاد كثيراً فى حمل كثيرين على التعلم او العمل بما تعلموا

يعترضون علينا بما قاله أحد الكتاب (ارى ان رد جماح الاطفال بمؤثر الخزى وحب الاستقامة خير من الوصول الى ذلك بالتخويف والارهاب) فقوله صحيح فى جانب من امكن اصلاحه بعوامل الاحساس ولكن الخوف هو لجام السواد الاعظم من الناس وقد علمتنا التوراة ان الابن كالخادم يجب تأديبه بالعقاب فان فى ذلك فائدة كبرى لانك تضربه بالسوط ولكنك تخلص روحه من الفساد وكثير من الخدم والاتباع يردون الى سادتهم بالسوط والآلام الجسمانية

اعتاد قوم على الشكوى من التشديد وقالوا ان المرء حر فى ان يعتقد او لا يعتقد وان المسيح لم يستعمل القهر مع احد من الناس ولكننا نذكرهم بالرسول بطرس فان المسيح قهره على اعتناق دينه وعلمه بعد ان ضربه ثم بعد ذلك طيب خاطره

لم ان الكنيسة لا تلجىء ابناء الذين ارتدوا عنها الى العودة اليها بالقهر واستعمال الشدة كما انهم اجتهدوا فى اضلال غيرهم مثلما ضلوا نعم قد تستعمل الكنيسة قوانين صارمة لرد من خرج عنها بغير القهر الا ان فى تلك الشدة

فائدة والكنيسة تحفظ لهم عندها صدراً رحيماً وتفرح بعودتهم اكثر مما تفرح باتباعها الذين لم يضلوا سبيلها كالراعي يجب عليه ان يعيد لسيده الشاة التي اخذت منه بالحيلة كالتي اخذت بالقهر فان عصته ضربها حتى استردها

يدعون بانه لا يجوز ان يقهر المرء على الخير ذلك لانهم رأوا انا لا نقهرهم على غيره الاَّ ان الله امر ان يؤتى بالناس الى سماطه فان خالفوا اجبروا فلما قال له الخدم ان اوامره نفذت ولكن المكان لا يزال فسيحاً قال لهم انطلقوا في الطرقات والحضائر واتوا بمن لا قيتموه وان قهراً وفي كلامه حكمة فان من اقبل طائعاً فهو كمن اعتنق الدين بالسهولة ومن عصى فانه يمثل لنا المذنب الذي جوزي على عصيانه

قبل ان تنشر القوانين القاسية في افريقيا حمل اصحاب دوناعلى الدخول في الدين القويم ذهب كثير من اخواني وقرنائي وأنا معهم الى انه لا يجب ان نطلب من القياصرة ابادة مذهبهم بتوقيع العقوبات عليهم وذهب آخرون وهم الاكبر سناً فينا الى خلاف ماذهبنا واحتجوا بان كثيراً من البلاد انما دخلت في ديننا بما وضعه الملوك من القوانين التي كانت تلجئهم الى ذلك شدة وقسراً ومع ذلك قر القرار على أن لا نطلب من الملوك قسوة ولا شدة وان يكتفي بتغريم كل حبر أوقس غير كاثوليكي عشرة جنيهات وقام نوابنا لتبليغ ذلك ولكن حكمة الله قضت أن يعود رسلنا خائبين ذلك لان الله يعلم ان الخوف وصرامة القوانين لا بد منهما في اصلاح كثير من النفوس التي حادت عن الحق وان الشدة تنفع حيث لا ينفع الوعظ ولا يجدى الخطاب

﴿ الملحق الثالث ﴾

(مقابلة)

بين الصيغة التي يقولها مسيحي يعتنق الاسلام
والتي يقولها مسلم يتنصر

الصيغة التي يقولها المسيحي في اسلامه نقلا
عن كتاب ابن سلمون قاضي مدينة
قرطبة بالجزائر المتوفى في
القرن الخامس من
الهجرة

يعلن المسيحي فلان انه يرفض الدين المسيحي عن اعتقاد وانه يعتنق ديانة الاسلام عن اعتقاد لانه يعلم ان الله ليس له نظير وانه نسخ بالقرآن ما انزله قبله من الكتب والشرائع والاديان ويشهد المسيحي المذكور ان لا اله الا الله وان الله ليس له شريك وان محمداً عبده وخاتم رسله وانبياه وان المسيح ابن مريم هو عبده ورسوله وان الله ارسل أحد ملائكته الى مريم ليخبرها بانها ستلد عيسى وانها حملت من روحه تعالى وبهذا خضع المسيحي المذكور لجميع أوامر الاسلام الالهية المتعلقة بالوضوء والصلاة والزكاة والصيام وغيرها ويعلم ما يترتب على تركها من العقاب كما يعلم المحرمات الواجب الامتناع عنها وعليه فانه مال الى الاسلام حباً فيه ويحمد الله على هذه النعمة التي أنعم بها

عليه فالمهمه اعتناق هذا الدين هذا هو ماقاله المذكور قولا مجرداً عن الخوف وخالياً عن كل تأثير لانه لايجب ان يقهر المرء فى الدين

الصيغة المستعملة فى الكنيسة اليونانية

لخروج المسلم عن دينه

ورأينا اتماماً للفائدة ان نقرن الصيغة السابقة بصيغة غريبة مستعملة فى الكنيسة اليونانية نقلناها من كتاب سيلبورج المطبوع سنة ١٥٩٥ ويلاحظ القارئ ماحتوت عليه من الخرافات فى صيغ السباب الموجهة الى محمد ودينه وفى الواقع لا يفهم الرجل الذى يخرج عن الاسلام ذى المبادىء السهلة البسيطة من تلك اللعنات المتتابعة شيئاً ومن المحتمل ان هذه الشتائم وضعت ليقولها من يخرج عن النصرانية ثم يعود اليها لاننا رأينا فيما تقدم ان المسلمين لا يعدلون عن دينهم كما شهد به المرسلون فى بلاد الشرق والجزائر واذ كان هذا شأن المسلمين فى هذه الايام حيث الامم المسيحية ذات اليد العليا فى الممالك الاسلامية فما ظنك بها أيام القرون الوسطى حيث كان الاسلام يتهدد بقاء الديانة النصرانية فى الوجود والصيغة المذكورة مكتوبة باللغة اللاتينية وقد ترجمناها الى اللغة الفرنساوية وهى بنصها

الصيغة الواجبة ملاحظتها على من ينتقل من
دين بنى ساره الى ديانتنا الطاهرة
الحقة المسيحية

فاولا يجب على المريد ان يصوم أسبوعين ويتعلم الصلاة التى علمنا اياها سيدنا عيسى اليسوع فى اناجيله المقدسة وكذلك علامة الدين وبعد

ذلك يلبس القس ثوبه الكهنوتى ويأتى بالمريد فى حضيرة التكريز بحضور المؤمنين الذين يرغبون فى الحضور ويوقفه أمام الهيكل مكشوف الرأس ثم يقول له انت يامن يترك اليوم ديانة بنى ساره من غير ان تكون مجبوراً على ذلك ولا خائفاً أو مغشوشاً بل باختيارك عن طيب نفس وقلب طاهر محب للمسيح ودين المسيح قل كما أقول انى أقلع عن ديانة بنى سارة كلها والعن محمداً الذى يمجده بنو ساره ويقولون انه نبى الله ورسوله فيظهر المريد رضاه بنفسه ان كان يعرف اللغة اليونانية أو بواسطة مترجم ان جهلها أو بواسطة وصية ان كان قاصراً ويتلو القس بعد ذلك الصيغة الآتية والمريد يكررها من بعده فاذا تم القول قال القس فلندع الرب والناس يجيبونه رب ارحم الى آخر صيغة الدعاء ويختمون بلفظة آمين ويبارك القس للمريد ويصرفه ويصير نصرانياً من اليوم الثانى لهذا الاحتفال

أما مايقوله القس ويكرره المتنصر فهو ما يأتى :

انا الذى فى هذا اليوم اترك ديانة بنى سارة حباً فى الديانة المسيحية بغير ادنى اكراه ولا اضطرار ولا غرور ولا غواية بل عن طيب نفس محبة فى المسيح ودين المسيح انى اقلع عن ديانة بنى ساره كلها والعن محمداً الذى يمجده بنو ساره ويقولون انه نبى الله ورسوله والعن علياً صهر النبى والحسن والحسين ولديه وابا بكر وعمر وطلحة ومعاوية وزيداً واليزيد والسيد وعثمان وجميع صحابة محمد وانصاره وخلفائه والعن سيدة وعائشة وزينب وأم كلثوم زوجات محمد الاولى ثم البقية اللاتى هنّ أكثر جرماً ومعهنّ ابنته فاطمة والعن مايقال له القرآن أعنى به سفر محمد أو كتابه الذى

ادعى انه نزل عليه من السماء على لسان الملك جبريل وكذلك مذهبه باجمعه وقواعد دينه وقصصه الكاذبة واسراره وسننه وما أتى به من الكفريات

والعن جنة محمد التى يقول ان فيها اربعة انهار تجرى فيها المياه العذبة ولبن لايحمض وخمر لذيذ وعسل نقى ويقيم فيها بنو ساره يوم القيامة التى تقوم بعد خمسمائة الف عام مع نسائهم منهمكين في الشهوات البدنية ويجلسون تحت شجرة سدره ويأكلون من الطيور مايشتهون وجميع فواكه الخريف ويشربون من عين الكافور وعين الزنجبيل التى تسمى سلسبيلا ويشربون ايضاً نبيذاً مزاجه من تسنيم وتعظم أجسامهم حتى تبلغ السماء طولا رجالا ونساء ويتمتعون بالعشق والغرام بدون ملل بحضرة الله لانه يقول ان الله فوق كل حياء

والعن الملائكة الذين يسميهم محمد هاروت وماروت والعن أحاديث محمد وما نقله عن العهد القديم والعن ذلك المذهب الكاذب وذلك الوعد الذى يدعى فيه محمد انه سيكون فاتح الجنة وانه يدخلها سبعون الفاً من بنى سارة الصادقين وان الله يحكم فى المجرمين فيغلون بالسلاسل من رقابهم ثم يدخلون الجنة أيضاً ويقال لهم عتقاء محمد

والعن شريعة محمد فى الزواج والطلاق وتطهير الزانيات وعدد الزوجات والسرارى وجميع مذهبه المنجس فى جميع هذه الاشياء

والعن ماجاء به محمد من السب فى الله حيث يقول انه يضل من يشاء ويهدى من يشاء وان الله لو شاء لقتلنا بعضنا بعضاً وانه يفعل مايريد وانه فاعل الشر والخير معاً وهكذا الصدفة والبخت هما المؤثران فى كل شئ

والعن اكذوبة محمد التي يقول فيها ان سيدنا والهنا عيسى اليسوع هو ابن مريم أخت موسى وهارون وانه ماولد من اللحم بل حملته أمه من روح الله وانه قلد الطيور لما كان صبياً من الطين ونفخ فيها فصارت حية والعن مذهب محمد الذى يقول فيه ان المسيح ليس ابن الله بل نبي الله ورسوله لانه ليس لله شريك وان الذين يقولون ان المسيح شريك الله سيعذبون في نار جهنم

والعن قول محمد ان لله في مكة بيتاً للصلاة بناه ابراهيم واسماعيل يسمونه الكعبة ويأمر بان المصلين يولون وجوههم قبله أينما كانوا والعن ذلك المعبد نفسه الذى يقولون ان في وسطه حجراً كبيراً يمثل الزهراء ويقدسون هذا الحجر كما يقدسون الحجر الذى يقال بان ابراهيم تعرف عليه بهاجر أو عقّل فيه جمله لما أراد ان يقرب اسحاق وبان الذين يزورون هذا المعبد يضعون احدى اليدين فوق الحجر ويمسكون الاذن بالثانية ثم يدورون حوله حتى يأخذهم الدوار فيخرون الى الارض والعن مكة ذاتها وارضها كلها والحجارة السبعة التي يرميها فيها بنو ساره ضد المسيحيين وجميع صلواتهم وعباداتهم وشعائرهم ومذاهبهم

والعن قصة محمد في الناقة التي يقول انها خصصت لله فعقروها فانتقم منهم لاجلها والعن الذين يعبدون نجم الصباح اعنى بها الزهراء والشعرى التي يسمونها الكبرى

والعن جميع قواعد محمد التي يشتم فيها النصارى ويقول انهم كافرون ومشركون ويهيج بنى ساره على قتلهم وابادتهم ويقول ان مقاتلتهم هى

طريق الله وان من مات من بنى ساره فى محاربتهم يكونون من ابناء الله ولهم الجنة

والعن تعاليم محمد النجسة فى الصلاة حيث يقول ان من لم يجد ماء فليأخذ ترابا دقيقاً ويمسح به وجهه ويديه والعن قول محمد ان الانسان خلق من طين وقطرة ماء ودود الحكمة ومادة متأ كلة

وفوق ذلك كله العن إله محمد لذى يقول عنه انه اله فرد كامل لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد

وعليه العن ماتقدم كله ومحمداً نفسه والهه الكامل وابتعد عنه والتحق بالمسيح وهو الحق وحده واعتقد بالآب والابن وروح القدس

ثم يتبع ذلك تلخيص المذهب المسيحى ويختم المريد الصيغة بالعبارة الآتيـة

واذا كنت أقول ماأقول عن غش أو خيانة لاعن اعتقاد ويقين وقلب يحب اليسوع فعلىّ اللعنة ولتكن روحى مع الشيطان

﴿ الملحق الرابع ﴾

« قتلى مراكش »

أصح تاريخ عن المرسلين الخمس الذين قتلوا فى مراكش يوم ١٦ يناير سنة ١٢٢٠ هو ما كتبه قس مدينة لسبون ورئيس اليسوعيين الذين يقال لهم القصر بناء على شهادة رجل حضر الواقعة وكان من أركان حرب

(دون بدرو) ونحن ننقله ملخصاً عن تاريخ القديس (فرنسوا داسيز) الذى الفه القس (مونييه)

كان وصول البعثة الى مدينة شيبيليه من الاراضى الاسلامية وبقى المرسلون مختفين ثمانية أيام بمنزل أحد المسيحيين ثم قويت عزائمهم بالصلاة وأرادوا أن يبدأوا رسالتهم بعمل عظيم لذلك خرجوا الى مسجد اجتمع فيه المسلمون للصلاة فلما رآهم المصلون ظنوا انهم من المجانين لما هم عليه من اللباس الغريب فاكتفوا بطردهم من الجامع بالعنف فذهبوا الى مسجد أكبر من الاول فلاقوا فيه مثل مالاقوا فى الاول وحسبوا ان عدم نجاحهم مسبب عن كونهم لم يبدأوا باعلى مكان فى المدينـة وقالوا لبعضهم علينا بالرئيس فان أصغى الينا سهل انقياد مرؤسيـه ثم توجهوا الى قصر الحاكم وزعموا انهم مرسلون من قبل ملك الملوك وأخذوا يعظون من فيه ضد محمد ولم يمسسهم أحد بسوء حتى اذا سمعهم الحاكم عجب من جرأتهم وأمر أن تقطع رؤوسهم فشفع فيهم لديه ابنه وتبدل الامر بسجنهم فى أحد الحصون فلما صاروا بداخله صعدوا الى منصته وجعلوا يلقون وعظهم على المارّة غير مبالين فصدر الامر بنفيهم الى بلاد مراكش مع عدد من المسيحيين ففرحوا مستبشرين بكونهـم سينشرون علم الصليب في بلاد الكافرين وكان يوم نزولهم على تلك البلاد يوماعصفت فيه العواصف فظنوا ان الله كتب لهم النصر فى تلك البقاع وكان (دون بدرو) أخ الفنس ملك البرتغال قد اختلف مع أخيه فرحل الى بلاد مراكش واحتمى فيها بظل أمير المؤمنين على بن يوسف الذى حكم سنة ١١٠٦ الى سنة ١١٤٣ وكان من

عادته الاحتفاء بالمسيحيين وتقليدهم أعلى المناصب حتى اختار له منهم حرساً عدده الف نفر وكان (دون بدرو) معروفا بالبسالة وحسن السمعة فمالت اليه القلوب وولاه الملك على نصرانيته قيادة الجنود الاسلامية وكان متمسكا بتقاليد عائلته فلم يخف من استقبال المرسلين على مشهد من الناس ووعدهم معونته وسألهم أن يكونوا فى أمرهم متبصرين حتى لا يصيبهم السوء فوعدوه وكانوا فى وعدهم صادقين ولكن جاش بهم حب رسالتهم فلم يتمالكوا أنفسهم بل خرجوا من اليوم الثانى وجعلوا يعظون الناس بدين اليسوع فى الطرقات وبعد أيام صعد أحدهم على عربة وبينما هو يخطب فى الناس بالعربة اذ مر به الملك ذاهباً لزيارة اضرحة اجداده فعوضاً عن أن يسكت الخطيب وكان اسمه الاخ (بيرار) كما كان يفعل المسلم نفسه ضاعف فى الوعظ واشتدت لهجته وهو عمل لا يستطيع أحد ان يأتيه هذه الايام فى بلاد مراكش لان المسلمين يقطعونه ارباً غير مبالين بما عساه يصيبهم من نقمة المسيحيين ذلك لان مسالمة المسلمين للمسيحيين فى القرون الوسطى أيام التمدن الاسلامى كانت أكبر منها فى هذه الايام فلما علم الملك انهم مسيحيون وانهم يدعون الناس الى دين المسيح غضب من قحتهم وأمر بارجاعهم الى بلادهم فحزن (دون بدرو) لهذا الامر ولكنه لم يقع عنده موقع الاستغراب ولم يمنع عن المرسلين مساعدته بل اصحبهم برجال من عنده الى الثغر الذى يركبون البحر منه فهرب المرسلون من اصحابهم ودخلوا مدينة مراكش مرة ثانية ونما خبر عودتهم الى امير المؤمنين فرأى في عملهم امتهاناً لسلطته وأمر بزجهم فى السجن فقضوا فيه عشرين يوما مضيقا عليهم أشد التضييق ثم

شفع فيهم (دون بدرو) فاستصحبهم الملك فى جيش خرج به لمحاربة بعض القبائل المتمردة بصفة وعاظ للمسيحيين الذين معه فلما عادوا الى مراكش عادوا الى الدعوة ولم يقتصروا على عامة الناس فى الازقة والطرقات بل صاروا ينتظرون الامير فى ممره ويدعونه الى دين المسيح فرأى انهم لن يعدلوا عن غيهم وأمر أحد قواده وهو أبو زائدة باعدامهم واجتهد ابو زايدة فى ردهم عن فعلهم فلم يفلح لذلك أنفذ فيهم أمر سيده فى ١٦ يناير سنة ١٢٢٠

مقابلة القديس فرنسوا داسيز مع سلطان مصر
فى معسكر دمياط سنة ١٢١٩

كان القديس فرنسوا داسيز مغرماً بحب الدعوة الى الدين المسيحى وعلى الخصوص بادخال الانجيل فى البلاد الاسلامية ولذلك فانه استصحب الاخ ايلومينى ولحقا بجيش (حنا دى بريان) المقيم على مقربة من مدينة دمياط فى الحرب الصليبية الخامسة وبعد ان اقام فيه اياماً عزم على التوجه الى معكر السلطان فاشاروا عليه بالعدول عن عزمه لما فى ذلك من الخطر عليه فلم يقبل مشورتهم وذهب مع رفيقه الى القس المصاحب لجيشهم كى يخبره بما عزم عليه ويطلب منه ان يصرح لهما بالذهاب حيث ارادا فامتنع من اجازتهما وقال لهما انه على يقين من انهما لن ينجوا اذا ذهبا ولما رأى انهما مصران على الذهاب قال لهما انه لا يعرف مغزى افكارهما واوصاهما ان يكونا على الدوام متمسكين بالعذراء فاجابا بالقبول وتوجها من فورهما الى معسكر السلطان وظن من قابلهما من المسلمين انهما خديعة فلما فهما من

اشاراتهما انهما يريدان نشر الانجيل بين بنى سارة زجوهما فى السجن وجلدوهما ضرباً بالعصى وكان القديس فرنسوا داسيز يصيح قائلا سودان سودان وهى اللفظة الوحيدة التى كان يعرفها واصلها صلادان وهذه تحريف سلطان ثم انتهى ان تمكن من تعريفهم مقصده فى مقابلة السلطان فمثلا بين يديه وهو الملك الكامل خامس الامراء من الايوبيين حكم (من سنة ١٢١٨ الى سنة ١٢٣٨) فسلما عليه وسلم عليهما وسألهما ان كانا يريدان الدخول فى الاسلام او انهما اقبلا برسالة من قبل اميرهما فقالا انهما لن يريدا الاسلام أبداً وانهما أتيا برسالة من الله لكى تنجو حياة السلطان ان اراد اتباع نصحهما وانه ان مات على دينه فهو هالك وانهما يبينان له بالعقل والبرهان ان المسلمين اذا استمروا على شرائعهم فجميعهم هلكى فقال لهما السلطان ان لديه قسساً ورهباناً لايمكنه أن يسمع قولهما بدون حضورهم فاشارا عليه بدعوتهم فلما صاروا بحضرته مع كبراء قومه واعيان مملكته أخبرهم بالامر فاشاروا عليه باسم محمد أن يقطع رأسيهما لانهم لايصدقون ما يقولان عملا بالكتاب الذى يحرم سماع الوعظ من غير المسلمين وانصرفوا من عنده فلما خلا السلطان بالرسولين قال لهما ان المسلمين اشاروا عليه بقطع رأسيهما ولكنه يخالف مشورتهم ويخلى سبيلهما لانهما جاءا ليخلصا روحه من الهلاك

﴿ الملحق الخامس ﴾

« تعدد الزوجات فى الاسلام »

(نقلا عن أحد المفسرين)

فسر ابن الخازن وهو من أشهر مفسرى القرآن وله رأى معدود لدى المسلمين الآية الآتية على ثلاث طرق وهى الآية الثالثة من السورة الرابعة (وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع)

التفسير الاول قال عروة نقلا عن عائشة رضى الله عنها ان الله أراد ان يمنع زواج اليتامى اللاتى تحت وصاية حموهن ممن يطمع فى جمالهن وأموالهن ولا يعطيهن من الصداق ما يليق بهن تواطئاً مع الاوصياء ولذلك أمر الله المؤمنين ان يختاروا نساء اقل جمالا وأقل مالا يليق بهن ما يقدمون لهن من الصداق الا اذا كان الخاطب قادراً على صداق المثل

التفسير الثانى روى الحسن انه كان بمكة أوصياء على أقاربهم من النساء يجوز لهم ان يتزوجوا منهن وكانوا لا يرغبون فيهن الا حباً باموالهن لا ميلاً لجمالهن لانهن لم يكن ليعجبنهم وكان للاوصياء نصيب شائع فى تلك الاموال ويخشون تداخل غيرهم من ذوى القربى بينهم فيتزوجونهن ويسيئون معاملتهن حتى يقضى عليهن فيختصون بما كان لهن من المال فاراد الله ان يرجع الناس عن ذلك وأنزل الآية المشار اليها

التفسير الثالث قال عكرمة عن ابن عباس انه كان فى قريش من يتزوج بعشر نساء وأكثر وكان حالهم يؤول الى الفقر لما تستدعيه لوازم معيشة تلك الزوجات فيتصرفون في أموال القصر من البنات اللاتى كنّ تحت وصايتهن فلافاة لهذا الضرر وهو الفقر من جهة وضياع أموال اليتامى من جهة أخرى أمر الناس ان لايتزوجوا بأكثر من أربع نساء لذلك نزلت الآية الثانيـة من السورة المذكورة تأمر برد أموال اليتامى اليهن متى بلغن الرشد

هذا هو الذى رواه الثقاة ولا يباح لمسلم ان يتزوج باكثر من أربعة فان ذلك محرم قطعاً ثم لايجوز له أن يتزوج باربعـة الا اذا كان قادراً على رزقهنّ

﴿ الملحق السادس ﴾

« مقدمة الشيخ الشعرانى »

يرى المسيحيون على الدوام فى تعدد الزوجات عن المسلمين انهما كاً منهم على الشهوات واللذائذ الجسمانية وهو وهم لاحقيقة له وخطأ فى معرفة أخلاق الشرقيين فقد قلنا ان تعدد الزوجات عند بعضهم أمر تقتضيـه وجاهتهم بين قومهم كما كان ذلك معروفا عند الجرمانيين وكثير من الذين لهم أكثر من زوجة يعيشون عيشة كمال وتقى ووقار وليسمح لى القراء أن آتى على طرف من مقدمة الشيخ الشعرانى التى صدر بها كتابه ميزان

الشريعة تأييداً لما أقول . لقد خصني الله ان ولدت من نسل كريم ولكن الشرف مزية باطلة بلا خوف الله ورهبته وقد خصني الله بمواهبه منذ نعومة الاظفار فحفظت القرآن عن ظهر قلبي ووعيته باكمله في الثامنة من عمري . وكنت أؤدي الصلاة باوقاتها ولم أؤخر منها الا واحدة بغير ارادتي واتفق لي مذ كنت صغيراً اني كنت أتلوا القرآن بتمامه في صلاة واحدة وقد منّ الله عليّ فحفظني من نزعات الشهوات التي تثور في الانسان من يوم بلوغه الحلم الى ان بلغت الثلاثين . فكنت ارغب عن موجبات التلذذ واستعمل اوقاتي في اكتساب العلم وقليل من الناس حفظوا انفسهم زمناً طويلا مثلي فالحمد لله الذي حفظني حتى تزوجت فاحفظوا انفسكم مطهرين ايقاناً بلطف الله وحسناته لا اعتماداً على انفسكم ولكن اذا رأيتم ان الشهوة ستغلبكم فتزوجوا ولو استدنتم في سبيل الزواج كي تنجوا من الضرر واذا قدرتم فصوموا فهو اولى بكم من الزواج مع الاستدانة وقد اوصى على الخواص غير المتزوجين بالجوع وكثيراً ما كان يعطي الاعزب حبلا يشد به بطنه فلا يشعر بحاجة الى اللذة مادام بطنه مشدوداً

وقد وهبني الله اربع نساء فاضلات هنّ زينب وحليمة وفاطمة وأم الحسن كلهنّ قائمات بواجباتهنّ تحب النظافة والصلاة واكثرهن في التقي فاطمة وام الحسن وكثيراً ما كانت فاطمة تقف خلفي في الصلاة وكنا نقرأ في صلاتنا ربع القرآن وهي لا تتركني الا اذا بكى ابنها ولم يكن عنده من يقوم مقامها وكانت لا تذهب الى وليمة ولا تحضر عرساً لفرط كمالها وشدة وقارها واصابها يوماً رمد فحال كمالها بين الطبيب وبين رؤية عينها ولم تفلح

فى اقناعها ثم شفى المرض ولكن زاوية العين الداخلية ضاقت فخالفت العين اختها وكانت تفضل ذلك على كشف عينها للطبيب وكانت نسائى الاربعة تشجعنى فى فعل الخير وتعيننى عليه وتدفعنى الى ايصال الصدقات للمعوزين

﴿ الملحق السابع ﴾

يعتقد المسلمون ان الآية الآتية المذكورة فى الكتاب الخامس من التوراة تشير الى محمد وتنبئ برسالته وهى (جاء الرب من طور سينا وتجلى لنا فى صاير وظهر فى (فاران) فسينا هو جبل الوحى على موسى وصاير (بالمثناة التحتية) جبل فى بلاد المقدس وهو مهبط وحى المسيحيين وفاران[1] ببلاد العرب مهبط القرآن قال أبو الحسن على الهراوى وهو سائح عربى فى القرن الثانى عشر فى رحلته (نصيرة) هى المدينة التى فيها بيت مريم بنت عمران التى ولدت فيه وسمى المسيحيون نصارى تبعاً لاسم المدينة المذكورة وهى على مقربة من جبل صاير وفى القسم الاول من التوراة ذكر لموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام لانه مذكور فيه (اتى الله من سينا واراد ان يمجده موسى على ذلك الجبل) ومذكور فيه ايضاً (واظهر فى صاير علامة باهرة تدل على ان عيسى سيظهر فى نصيرة المقدسة) وفيه ايضاً واظهر فى جبال (فاران) علامة يعرف بها ان محمدا بعث رسولا هذا هو كلام التوراة انتهى

---

(١) لعله يريد بجبل سعرى

« فهرست كتاب الاسلام »

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

ملحقات

« الملحق الاول »

« الملحق الثانى »

« الملحق الثالث »

« الملحق الرابع »

« الملحق الخامس »

« الملحق السادس »

« الملحق السابع »

تمت ترجمته حيث كانت الساعة تسعة ونصف أفرنكى صباحا بعزبة صاحب السعادة محمد نسيم باشا الافخم التابعة لمركز المنصورة حيث كنا فى نزهة بها يوم الاربعاء تاسع شهر سبتمبر سنة ١٨٩٧ (١١ ربيع الثانى سنة ١٣١٥)